

الفصل السادس

افتراءات المستشرقين على عقيدة الإيمان برسالة النبي محمد ﷺ والرد عليها

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: ثبوت الرسالة عن طريق الوحي.

المبحث الثاني: عالمية الرسالة وافتراءات المستشرقين عليها.

المبحث الثالث: افتراءات المستشرقين على المعجزات النبوية والرد عليها.

المبحث الرابع: التحامل الاستشراقي على شخص صاحب الرسالة ﷺ.

افتراءات المستشرقين على عقيدة الإيمان

برسالة النبي محمد ﷺ والرد عليها

لما كانت عقيدة الإيمان برسالة النبي ﷺ من العقائد الهامة في الدين الإسلامي بعد الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه على اعتبار أن هذه الرسالة مكتملة للرسالات السابقة ودالة على ثبوتها وصدق حاملها من الأنبياء السابقين وأن المسلم لا يكتمل إيمانه إلا بالإقرار والاعتراف بهذه الرسائل بجوار رسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾^(١)

دأب عدد من المستشرقين غير قليل على التشكيك في هذه الرسالة المكتملة والخاتمة وقام بتوجيه طعنات وإطلاق افتراءات على هذا المعتقد.

- ١- بدءاً بنفي ثبوت الوحي المنزل على المصطفى الأكرم عليه الصلاة والسلام..
- ٢- ومروراً بنفي عالمية الرسالة..
- ٣- وأخرى بالتشكيك في الآيات والمعجزات الدالة عليها..

٤- ثم انتهاء بالهجوم على شخص صاحب الرسالة الغراء والذي لم يكن يعرف في زمانه إلا بالصادق الأمين صاحب الخلق العظيم عليه من الله أفضل صلاة وأتم تسليم، وما ذاك كله إلا لكي يصلوا إلى القول بأن محمداً ﷺ شخص يخطئ كثيراً وليس نبياً ولا رسولاً ولنناقش ما زعموه من خلال ما يلي:

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

المبحث الأول

ثبوت الرسالة عن طريق الوحي

لما كانت رسالة المصطفى ﷺ ثابتة بالوحي فإن المستشرقين لم يتقبلوا هذا الأمر بل أنكروه تماماً .

١- وزعموا أن محمداً ﷺ ادعى ذلك ادعاءً وأن مسألة الوحي مسألة غير مرئية ومستحيلة

وكل ما في الأمر أن محمداً على حد تعبير (جب) اعتقد أنه يوحى إليه نتيجة لبعض التأثيرات الخارجية ، حيث كانت مكة بيئة غنية بالتجارب الإنسانية نظراً لموقعها التجاري الهام بين المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط ، احتكارها للتجارة ومجيء الناس من كل مكان إليها ، فتميز ساكنوها على حد قوله بعلاقات دبلوماسية مع الوافدين من رومان وغيرهم مما عمق في قاداتهم القدرات العقلية والصفات الأخلاقية الحكيمة مثل : ضبط النفس وغيرها ، وكان محمد أحد هؤلاء القادة ، وبسبب ذلك نرى أن محمداً قد نجح في دعوته - كرسول - لأنه كان مكياً^(١).

٢- ثم يقولون إن ادعاءه تنزيل الوحي عليه وهو في عزلة وهم وخيال ، إذ ليس هناك ما يثبت عند القسيس (لامانس) أن محمداً كان يميل إلى الاعتكاف والعزلة ؛ لأن هذا الأمر لا يتفق على حد تعبيره مع نفرة محمد من الوحدة وكرهيته المشهورة للنسك^(٢)

٣- أو أن هذا الادعاء هو نتيجة لنوبات صرع - كما يفترى - (نولدكة) كانت تصيب محمداً على فترات فيتكلم بكلام يقول مرة إنه قرآن وأخرى حديث قدسي وثالثة حديث نبوي^(٣) وكوّن بذلك رسالة مليئة بالحكايات والأساطير ويزعم أنها ربانية^(٤).

(١) انظر: دراسات استشراقية وحضارية «كتاب دوري محكم»، ص ١٥٩، ١٦٠ .

(٢) نقلاً عن أوربا والإسلام، ص ٨٩ د/عبد الحليم محمود.

(٣) المصدر السابق ص ٨٩، وشبهات وأباطيل خصوم الإسلام ص ٣٥.

(٤) راجع دائرة المعارف الإسلامية، ج ٢ ص ١١٢، وكتاب حياة محمد، ص ٤٠ د/محمد حسنين هيكل، والمستشرق نيكولسن ومفترياته على الإسلام، ص ٢٧٠.

وهكذا يستبعد المستشرقون بكل سهولة - كما نرى من تحبطهم - الرسالة السماوية للنبي محمد ﷺ وينتهون إلى أنها نتاج إنسان وبيئة أو أنها من وحي الخيال ونوبات الصرع ولا علاقة لها بالوحي السماوي ؛ لأنه مستبعد ومستحيل في دنيا الواقع المنظور.

مناقشة ونقد:

أولاً: الرسائل اصطفاء لا اكتساب

إن الرسائل السماوية معروفة عند كل العقلاء أنها في جوهرها اصطفاء واجتباء من الله عز وجل لمن يشاء من خلقه ملك أو إنسان، وهو سبحانه فعال لما يريد قال تبارك وتعالى: ﴿لِلَّهِ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾^(١) فإعطاء الرسالة ليس لأي شخص بل للذي يصطفى ويكون أهلاً لذلك، كما أن المصطفى من البشر لا يأتيه بوحي الله إلا ملك مصطفى أيضاً، فالمصطفى لا يأتي إلا للمصطفى، وهذا يعني أن أي رسالة لا يمكن أن ينالها إنسان بالتمني أو بالتخيلات ولا بالرياضة الروحية ولا بما يكتسبه من خبرات ولا بموقع بلدته المتميز بين البلاد ولا بعبقريته أو ذكائه البارِع.

لأن هذا الأمر ليس بيد البشر بل بيد خالق البشر ومدبر الكون الذي يعلم ديبب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، وقد حدث هذا الاصطفاء لمن يحمل رسالة الله من البشر في التاريخ الإنساني مرات عديدة ولم تكن هناك غرابة في الأمر ورسالة محمد ﷺ واحدة من هذه الرسائل، وتحمل معها براهين وآيات، فما الغرابة في هذا الأمر الجديد القديم؟ ولماذا لم يكن محمد واحداً من هؤلاء طالما معه ما يدل على ذلك من الآيات البيّنات؟؟!

أم إن الحقد والحسد أعما بصيرة المستشرقين، وأنسياهم التاريخ الديني ووقائعه، وجعلاهم يغالطون وعن الموضوعية يتعدون لكي يشوهوا جزءاً هاماً من الرسائل

(١) سورة الحج، الآية: ٧٥.

السماوية التي جاءت عبر تاريخ الجنس البشري والمتمثل في رسالة ودين محمد ﷺ لدرجة أن واحداً منهم فرنسي الأصل يسمى (كيمون) صرخ في كتاب له يسمى (باثولوجيا الإسلام) ليقول فيه :

«إن الديانة المحمدية جذام نفشى بين الناس.. بل هو مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولي يبعث على الخمول والكسل ولا يوقظه منها إلا لسفك الدماء ويدمن على معاقرة الخمر ويجمع في القبائح ، وما قبر محمد إلا عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة والذهول العقلي إلى ما لا نهاية... والتعود على عادات ستقلب إلى طباع أصلية ككراهة لحم الخنزير والنبيد والموسيقى»^(١)

ويفهم من هذه السطور والتي حاد صاحبها المخمور عاشق الخنازير عن أدب الكتابة فضلاً عن الأسلوب العلمي في الدراسة والحكمة أن الدافع وراء الإنكار لرسالة خير الأنام هو الحقد الذي سكن في قلوب المستشرقين لا غير.

ثانياً : الوحي حقيقة لا خيال :

ومما يؤكد ثبوت هذا الحقد واستقراره في قلوبهم أن هؤلاء بنوا إنكارهم لثبوت الرسالة على إنكار الوحي وأنه أمر مستحيل كما نقلنا عنهم.

وهذه نعمة مادية بحتة يطلقها المستشرقون ساعة أن يسمعون أن محمداً رسول أوحى إليه.

ومعلوم أن إنكارهم هذا باطل ، وما بني على باطل فهو باطل ؛ ذلك لأن الرسالتين السابقتين لم تثبت واحدة منهما إلا عن طريق الوحي ، فلو سلم للقائلين بالإنكار للزم عليه إنكار الرسالة التي أتى بها موسى - عليه السلام - في اليهودية وكذلك الرسالة التي

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص ٥٥ د/محمد البهي.

أتى بها عيسى -عليه السلام- في النصرانية، ولا أظن أن أحداً من المستشرقين الذين ينتسبون إلى رسالة موسى أو عيسى عليهما السلام يسلم بهذا الأمر.

فلماذا إذن يُنكر على رسول الله ﷺ بأن الوحي بلغه رسالة الله عز وجل إلى العالمين، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى العلم يشهد بثبوت الوحي والرسالة فإن من ينكر الوحي -المنزل على الرسول الأكرم عليه من الله أفضل صلاة وأتم سلام- لا لشيء إلا لأنه غير مرئي ومستحيل سماعه ونزوله.

فإنه قد جانب كل المسلمات في دنيا الواقع؛ ذلك لأن أشياء كثيرة في واقعنا لم نرها ولم نسمعها وهي تجري حولنا في كل لحظة ومع ذلك نسلم بوجودها بيقين.

وقد استطاع العلم الحديث كما يقول الأستاذ (وحيد الدين خان)^(١) أن ييسر لنا إدراكها عن طريق الأجهزة العلمية التي اخترعناها، وهذه الأجهزة تستطيع أن تدل على صوت ذباب طائر على بضعة أميال وكأنه يطير عند أذنك، ومن الأجهزة العلمية ما وصل التقدم فيه إلى حد أنها تسجل صدام الأشعة الكونية في الفضاء وتسمعك أشياء لا يمكن سماعها بالطرق السمعية التقليدية.

وهذه الطاقة غير العادية للسمع لا تخص الآلات العلمية الحديثة -فحسب- وإنما وهبها الله لبعض الحيوانات أيضاً.. إذ تسمع أصواتاً تخرج عن نطاق أسمعنا، فمثلاً الحشرة التي تطلق عليها (العثة) وهي حشرة مجنحة، فلو أنك وضعتها على نافذة مفتوحة فستحدث صوتاً يسمعه زوجها على مسافة بعيدة جداً ولنسوف يجيئها هذا الزوج بنفس طريقته. وهناك نوع خاص من هذه الحشرات يدعى (الجندب) يحك رجليه وجناحيه ويصوت بطريقة غير عادية ويسمع على مبعده نصف ميل.. ليدعو زوجته وهي أيضاً ترسل وهي ساكنة بلا حراك جواباً لا نعرفه وإنما يعرفه (الجندب) الذكر ثم يلحق بها أينما كانت ..

(١) في كتابه الإسلام يتحدى، ص ٩٦ ترجمة ظفر الدين خان، ومراجعة وتقديم د/ عبد الصبور شاهين - مكتبة القرآن.

وقد أثبتت البحوث أيضاً أن (أبو النطيطة) العادي (Rasshope) لديه قدرة خارقة على السماع حتى إنه يستطيع أن يسمع ويحس بالحركة التي تحدث في نصف قطر من ذرة الأيدروجين.

إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي تؤكد إمكان وجود وسائل غير مرئية لدى ذوي الحواس الخاصة.^(١)

وإذا كان الأمر كذلك فما وجه الغرابة في ادعاء إنسان لم يحكم عليه أحد بالكذب قط من قبل هذا الأمر أنه سمع صوتاً من لدن خالقه وخص به وحده دون سائر الناس، والناس جميعاً في وقته يعلمون أنه لم يجرب عليه غير الصدق والأمانة.

وما دام من الممكن أن توجد في هذا العالم حركات وأصوات لا تسمعها آذان الإنسان ولكن تسجلها الآلات، وما دامت هناك رسائل تدرکہا حيوانات دون أخرى فما وجه التعجب والاستبعاد؟!

إن صاحب كتاب (الإسلام يتحدى) يقول: إن الله تعالى -لحكمة يعلمها- يرسل رسائله بوسائل خافته خفية إلى الإنسان المختار للرسالة بعد أن يودع فيه صلاحية التقاطها وفهمها، فليس هناك من تصادم في الحقيقة بين مشاهدتنا وتجاربنا العلمية، فهو واقع من الوقائع الكثيرة التي نشاهدها ونجربها في أمكنة وطرق مختلفة، فالوحي ممكن وغير مستحيل^(٢) ونحن نؤكد على هذه الحقيقة الممكنة، واللامستحيلة ونقول للمستشرقين المنكرين: انظروا وتأملوا -إن لم تكفكم تلك الأمثلة السابقة- من التقدم المذهل في وسائل الاتصالات العالمية الآن وكيف يكون الإنسان فوق سطح القمر، ويتصل بآخر في الأرض، أو كيف يكون في أقصى الولايات المتحدة الأمريكية، ويتصل بأهله في القاهرة وهو نائم ممتد على أريكته، يقص عليهم الأفكار ويسمع منهم

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق ص ٩٧.

الأخبار ، فإذا كان الإنسان الضعيف استطاع أن ينقل الأفكار ويسمع الأخبار بهذه الطريقة السهلة المريحة ، ولا ينكر ذلك أحد عليه فلماذا ننكر على الرسول ﷺ قوله إن الله خالق الإنسان ومعلمه البيان ، أسمعته أوامره ونواهيه عن طريق الوحي ، وحمله الرسالة وأمره بالتبليغ!؟ وقد فعل النبي ﷺ ذلك على أكمل وجه ولا سبيل للإنكار.

ثالثاً : أكذوبة الصرع :

ومن عجيب ما ذهب إليه هؤلاء الذين يصرون على إنكار رسالة المصطفى - عليه الصلاة والسلام - بلا برهان ، إشاعتهم - القول الذي ذكرناه آنفاً - بأن النبي ﷺ كان مريضاً بمرض الصرع ، وأنه كانت تعتربه غيبوبة يقول بعدها كلاماً يتلوه على المؤمنين بأنه وحي ، وهو مرة قرآن وأخرى حديث قدسي ، وثالثة حديث نبوي بينما هو من آثار المرض.

وأقول لهؤلاء :

١- إن هذه الأكذوبة التي أطلقتها - ضمن ما تطلقونه من أكاذيب - هي في الحقيقة عليكم لا لكم ، وفي صالح ثبوت رسالة النبي ﷺ ، وليست في صالحكم ، ودائماً يترك الله عز وجل بعض الحق عند الأحمق ليدل على حمقه. ونبي الإسلام - عليه الصلاة والسلام - كانت تصيبه ساعة أن ينزل الوحي عليه غيبوبة حقاً ويتصيب جسده عرقاً ولكن لم يكن ذلك بسبب المرض المزعوم ، بل نتيجة لثقل الوحي ، وكان الوحي ينزل عليه في أوقات كثيرة بالمقدار الكبير من الآيات فيستغرق وقتاً طويلاً بعد ذلك ليحكىه ، ويقراه على أصحابه ، فإذا ما قرأه كتبه كتبه الوحي خلفه ، فإذا ما دخل في الصلاة يقرؤه كما هو مكتوب تماماً ، لا ينسى حرفاً ولا يغير لفظاً ولا يبدل جملة بل يعيده كما قال.

فهل يتوفر ذلك في مريض الصرع ، وهل يستطيع المصروع بعد أن يفيق من نوبة الصرع أن يتذكر شيئاً مما فعله أو قاله؟ إن ذلك لم يثبت أبداً في دنيا الواقع.

ولنسمع كلمة الأطباء وعلماء النفس في ذلك :

إنهم يقولون : إن نوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أي ذكر لما مر به أثناءها ، بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسياناً تاماً ، ولا يذكر شيئاً مما حل أو مر به خلالها ؛ ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطيل ، ويخرج كذلك عن هدوئه وثباته. ذلك هو ما قاله الأطباء وعلماء النفس. (١)

وهو لا ينطبق البتة على صاحب الرسالة الموقر ، إذ كان عليه الصلاة والسلام حين يأتيه الوحي في منتهى الهدوء وفي منتهى السكون ، وفي منتهى الاستقرار ، وكان إدراكه الروحي والفكري في غاية التنبه ، فإذا ما انفصلت عنه هذه الحالة حكى كل ما أوحى إليه من خلال ذاكرة حافظة بلا نسيان. وفي هذا الأمر دليل على أن محمداً ﷺ في استيعابه يخالف ما هو مألوف لدى البشر جميعاً ؛ لأن ذاكرته أعدت إعداداً خاصاً من قبل الحق جل وعلا لتكون وعاء لما يوحى إليه ، ويبلغ ، وهذا الأمر صادر عن قضية صادقة ، ذكرها القرآن الكريم هي قوله تعالى ﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (٢) ، وإلا هاتوا أي إنسان - كما يقول فضيلة الشيخ الشعراوي - ليتكلم ربع ساعة ثم سجلوا عليه ما تكلم به ، ثم قولوا له : أعد علينا ما تكلمت به ، فإنه لا بد أن يخطئ... ولكن صاحب الرسالة ﷺ يسجل ما يقوله في أثناء الوحي ، ويقرؤه بعد ذلك في كل وقت فلا نجد فارقاً بين هذا وذاك (٣)

وكل كتب السير والتواريخ أثبتت ذلك لرسول الله ﷺ .

(١) نقلاً حياة محمد ﷺ ص ٤٠ د / هيكل.

(٢) سورة الأعلى ، الآية ٦.

(٣) شبهات وأباطيل خصوم الإسلام ، ص ٣٦.

ومن ثم رأينا المستشرق (دوغوبه) أحد المعتدلين في بعض الأحكام من المستشرقين -ومعه كثيرون-^(١) ينظرون إلى ما وثقته كتب السير عن حفظ الرسول ﷺ وما قاله العلم في صفات المصروع. فيتهمكم بمن قال إن محمداً ﷺ كان مريضاً بالصرع ويقول: إن هذا الأمر بعيد الاحتمال، ويعلل لذلك بأن الحافظة في المصروعين تكون معطلة على حين أن حافظة محمد كانت غاية في الجودة كلما هبط الوحي.^(٢)

٢- أما عن التغيرات في الأسلوب:

والذي قالوا فيه: إن محمداً يتكلم بكلام يقول فيه مرة إنه قرآن وأخرى حديث قدسي وثالثة نبوي وجعلوا من ذلك مصدر تشكيك.

أقول: إنكم لو نظرتم لوجدتم أن هذا التغيرات في الأساليب لا يقوى عليه إلا رسول موحى إليه برسالة؛ لأن الأسلوب هو الطريقة اللازمة للشخص في أداء المعاني، فلو أتينا بإنسان له موهبة عالية في الإلقاء والتعبير وسجلنا له مميزات أسلوبه ثم سألناه أن يأتي بأسلوب آخر، وسجلنا له الأسلوب الآخر، ثم غيره إلى ثالث فإنه لا يستطيع أن يتخلص من أسلوبه الأول أبداً، بل سنرى كل أسلوب امتزج بالآخر في أداء المعاني، والأداء سيأخذ تشخيصاً لا يمكن أن يتبرأ منه صاحبه، أما إذا ما جئنا إلى ما ذكره الرسول ﷺ فإننا نجد أنه يأتي بأسلوب قرآني وآخر حديث قدسي وثالث حديث نبوي، والأساليب مع أنها ثلاثة ويقول بها شخص واحد إلا أنه لا يمتزج فيها أسلوب بالآخر، بل لكل أسلوب خواصه ومميزاته وطبائعه، وهذا من غير شك لم يأت به المصطفى ﷺ من نفسه، لأنه فوق طاقة البشر والذي

(١) من أمثال ول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) وأرفنج في كتاب (حياة محمد) وآتين دينية في كتابه (الرسول محمد) ودور منغم في كتابه (حياة محمد) حيث عقد هؤلاء فصولاً مسهبة أحياناً في كيفية الوحي التي اعتمد بعضهم فيها على الأحاديث الصحيحة والسيرة النبوية الموثقة - انظر: الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين: ص ١١٤ تدير حمدان .

(٢) نقلاً عن أوربا والإسلام ص ٨٩، ٩٠.

أوحاه إلى رسول الله هو خالق البشر، والفارق أن القرآن الكريم يتحدى به ويُتعد بتلاوته في الصلاة وغيرها لأنه موحى به.

والحديث القدسي والنبوي موحى بهما إلا أنه ليس لهما صفة التحدي، وفي ذلك يقول فضيلة الشيخ (محمد متولي الشعراوي): يجب أن يفهم أن الاختلاف بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث القدسي والنبوي لا يجوز أن يكون مصدر تشكيك وإنما يجب أن يكون دليل إيمان بصدقه، وبأن الرسول يعطينا ثلاثة أساليب للأداء بحيث لا يشترك أسلوب مع أسلوب ولا تشبه طريقة أدائية بطريقة أدائية أخرى، بل لبعضها خواص التحدي مثل القرآن، أما الحديث القدسي والنبوي فليس لهما خواص التحدي إلا أن الأول توقيفي والثاني بعضه توقيفي وبعضه توقيفي كما يرى بعض العلماء^(١).

فهل يصلح بعد هذا العرض أن يدعي مستشرق مخمور مثل (نولدكة) ومن سار على نهجه أن يتهم نبينا الأكرم ﷺ بأن تغايره في أساليبه كانت نتيجة لما أصابه من مرض الصرع فمن المريض إذن ألا يستحون؟!

رابعاً : إنكار الرسالة تكذيب لنصوص الكتاب المقدس -عندهم- :

وأخيراً أقول لمن يصر على إنكار الرسالة الإلهية التي أتى بها المصطفى ﷺ من المستشرقين ويحاول أن يرجعها إلى البيئة المكية أو يحكم على صاحبها بأنه مريض بالصرع -حاشاه ﷺ- أقول: إنكم أيها المستشرقون في كل بقاع الدنيا إن ادعى بعضكم أنه يهودي الديانة أو نصراني الملة يؤمن بما جاء في الكتاب المقدس وبكل نص فيه ثم تحاولون إنكار رسالة محمد ﷺ والذي جاء بعد عيسى وموسى عليهما السلام فإن إنكاركم هذا سيجعلكم غير كاملين الإيمان بل مخالفين كل المخالفة لما يجب أن تثبتوا على الإيمان به وهو نصوص الكتاب المقدس عندكم، ذلك لأن هذا الكتاب ما زالت فيه بعض النصوص والفقرات التي تشير إلى أن هناك نبياً سيأتي إلى الدنيا يحمل رسالة

(١) شبهات وأباطيل خصوم الإسلام، ص ٣٩.

الله بعد عيسى اسمه محمد أو أحمد ﷺ، وأنه سيولد في مكة، وأن أمته ستكون من أكبر الأمم وهو خاتم النبيين. وحتى تكون الحجّة عليكم واضحة والدليل مقنعاً فإنني أحيلكم على جناح السرعة وبإيجاز سريع إلى هذه النصوص الدالة على أن نبينا محمداً هو صاحب الرسالة الإلهية التي تعترضون عليها الآن:

١- جاء في سفر التثنية ما نصه: «جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألاً من جبل فاران وأتى من ربوات القدس»^(١)

قال المحققون من الباحثين:

إن مجيئه من سيناء يعني إنزال التوراة على موسى عليه السلام في طور سيناء كما هو معلوم عند أهل الكتاب.

وإشراقه من سعير أي إنزاله الإنجيل على عيسى عليه السلام؛ لأن ساعير هي قطعة في أرض الخليل تابعة لقرية تدعى الناصرة وفيها ولد المسيح عليه السلام وباسمها سمي من اتبعه من نصارى.

وأما استعلانه من جبال فاران فهو إشارة إلى رسالة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه في أرض مكة، لأن اسم فاران يجمع المسلمين وأهل الكتاب لا يطلق إلا على مكة، ومن قال غير ذلك فهو أفاك محرف، وقد نقل بالتواتر واتفاق الأمم أن إسماعيل إنما ربي بمكة، والبرية التي بين مكة وطور سيناء تسمى برية فاران، ولا يمكن لأحد أن يدعي أنه نزل كتاب بعد المسيح في شيء من تلك الأرض ولا بعث نبي.

فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا إرسال محمد ﷺ^(٢) وإلا فليخبرنا المستشرقون بنبي آخر إن استطاعوا.

(١) سفر التثنية إصحاح ٣٣ فقرة ٢/.

(٢) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج ٣ ص ٣٠٠ لشيخ الإسلام ابن تيمية - مطابع المجد التجارية وفي نور العقيدة الإسلامية ص ١٣١ د/ محمد أحمد المسير.

٢- جاء في إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع عشر على لسان عيسى عليه السلام والذي يسمونه بيسوع عندهم ما نصه :

«إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وإني أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد» وقد نقلها شيخ الإسلام ابن تيمية من طبعة أخرى فارقليطا^(١) آخر لكن الطبعة التي بين يدي الآن تقول معزياً آخر^(٢).

٣- ونص آخر، في نفس الإنجيل يقول: «لا أتكلم معكم أيضاً؛ لأن رئيس العالم يأتي وليس له في شيء»^(٣).

٤- ونص يقول: «ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب فهو يشهد لي»^(٤).

٥- ونص يقول: «وأما الآن فأنا ماض إلى الذي أرسلني.. وخير لكم أن أنطلق لأنني إن لم أنطلق لم يأت المعزي (الفارقليط).. ومتى جاء لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمر آتية.. إلخ»^(٥).

وهكذا تتوالى النصوص بيد يوحنا الإنجيلي وكلها تشير إلى رسول الله محمد ﷺ. لأن الكلمة إن كانت فارقليطا فهو في لغتهم العبرانية الحماد وقيل الحامد، واستدل على هذا بقول يوشع: «من عمل حسنة تكون له فارقليطاً جيداً، أي حمداً جيداً

وجاء أيضاً أن فارقليطاً معناه المعز أيضاً أي الذي يعز أهل الإيمان. وسواء كان معنى الكلمة الحماد أو الحامد أو الحمد أو المعز فهي لا تنطبق بهذا الوصف الظاهر إلا

(١) المصدر السابق .

(٢) طبعة العيد المنوي - دار الكتاب المقدس بمصر والنص في إنجيل يوحنا إصحاح ١٤ فقرة ١٥/١٦.

(٣) إنجيل يوحنا إصحاح ١٤ فقرة ٣٠.

(٤) إنجيل يوحنا إصحاح ١٥ فقرة ٢٦.

(٥) إنجيل يوحنا فقرات من ٥، ٧، ١٣.

على محمد ﷺ فإنه وأمتة الحمادون الذين يحمدون الله على كل حال ، وهو ﷺ صاحب لواء الحمد يوم القيامة ، والحمد مفتاح خطبته ومفتاح صلاته ، ولم يعرف قط نبي أعز أهل التوحيد والإيمان كما أعزهم محمد ﷺ فهو أحق باسم المعز من كل إنسان.

فالنصوص التي نقلناها كلها تتفق جميعها على أن المخبر عنه هو محمد - عليه الصلاة والسلام :-

أما من قال من النصارى بأن المقصود بالمعز هو روح القدس أو المسيح المخلص فهو كما يقول شيخ الإسلام (ابن تيمية): قد جانب الصواب لما يلي:

١- لأن روح القدس ما زالت تنزل على الأنبياء قبل المسيح وبعده وهذا ما اتفق عليه أهل الكتاب وليست موصوفة بهذا الوصف قال ﷺ لحسان بن ثابت وهو يهجو المشركين: «اللهم أيده بروح القدس».

٢- قول المسيح سأرسل إليكم معزاً أو (فارقليطاً) آخر دل على أنه ثان لا أول كان قبله ولم يكن معهم في حياة المسيح إلا هو لم تنزل عليه الروح ، فعلم أن الذي يأتي بعده نظيراً له ليس أمراً معتاداً يأتي الناس.

٣- إنه قال يثبت معكم إلى الأبد ، وهذا إنما يكون لما يدوم ويبقى معهم إلى آخر الدهر. والمقصود بقاء شرعه لا ذاته ، فعلم أن المعز الآخر أو الفارقليط الآخر لم يثبت معهم شرعه ودينه إلى الأبد وذلك لا ينطبق إلا على محمد ﷺ .

٤- أخبر أن الفارقليط -رئيس العالم- ، وأنه يشهد له ، وأنه يذكرهم بكل ما قال ويخبرهم عن الغيبات الآتية مستقبلاً.^(١)

ونحن نعلم أنه لم يشهد للمسيح شهادة سمعها عامة الناس في العالم كله وعلم بها أهل الأرض جميعاً إلا محمد رسول الله ﷺ وكذلك أخبر بمغيبات كثيرة تحققت

(١) راجع الجواب الصحيح ، ج ٤ ص ١٥-١٧ وفي نور العقيدة ص ١٣٧-١٣٩.

مثل انتصار الروم على أعدائهم بعد هزيمتهم بوضع سنين وإخباره بعلامات الساعة وغير ذلك وما زال العلم كل يوم يكتشف صدق نبؤات الرسول محمد ﷺ مثل ما أخبر عنه علم الأجنة وطبقات الأرض.. إلخ من الاكتشافات العلمية التي تحققت نتائجها على أيدي الباحثين وشهدت لها كل معامل الدنيا وبسبب ذلك أسلم الكثيرون.

وستواصل البشرية مسيرتها اليومية ، وسيظهر كل يوم تحقيق جديد لخبر قديم أخبر به رسول الله ﷺ وهو يبلغ رسالته إلى الناس منذ أربعة عشر قرناً من الزمان.

فهل هناك حجة للمستشرقين بعد ذلك بأن محمداً ليس رسولاً من عند الله؟ وهل يمكنهم تكذيب هذه النصوص والتي تعمدنا نقلها من كتبهم المقدسة لا من عندنا ولم نتعمد تحريفها كما فعل أسلافهم من قبل؟

الحق أننا نعلم أنهم على طريقة أسلافهم يسيرون ، وسيظلون مهما دافعنا عن رسول الله يفترون ، وإنالهم لمواجهون. بمشيئة الله تعالى وكل المخلصين من أبناء الأمة..

المبحث الثاني

عالمية الرسالة وافتراءات المستشرقين عليها

كل عاقل يعلم أن الرسالة التي أتى بها النبي الكريم محمد ﷺ وأذن بها منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان في مكة هي رسالة للعالمين ، هدفها تصحيح مسيرة البشرية العرجاء ، ودعوها إلى اتباع هدي السماء ، والالتفاف بها حول عبادة إله واحد في ذاته وصفاته وأفعاله ، قادر مقتدر يملك النفع والضرر ويرزق من يشاء بغير حساب.

ولقد كانت البشرية أحوج ما تكون إلى هذه الرسالة ؛ ذلك لأن الأوضاع كانت متردية في كل بقاع الدنيا بما فيها مكة أم القرى ، وكانت العقيدة الملائمة للفترة غائبة والناس حيارى بين دولتي الفرس والروم.

فكسرى^(١) يعم في المشرق ظلمه

وهرقل^(٢) منه في المغرب أظلم

والناس بين القيصرين كأنهم

غنمٌ على تلك الذئاب تقسمُ

وفي هذه الأثناء شاءت إرادة الله عز وجل أن تنقذ البشرية من أوضاعها المتردية، فأرسل إليها محمداً ﷺ برسالة عالمية لكي يضع من خلالها إطاراً من الأخلاق والفضائل لم يعرف العالم له مثيلاً من قبل.

بيد أن المستشرقين أنكروا على الإسلام عالميته، وحددوا الإقامة لرسالته، وزعموا أنها قاصرة على الجزيرة العربية فحسب ولم يسمحوا لها بالعبور خارج حدودها.

وأمامنا الآن اثنان من هؤلاء وهما: (وليم ميور) و(شك كبناني) وقد أخذ كل منهما يكتب ويشكك في صحة دعوى عموم الرسالة بحجة خبيثة مبنية على أساس أن محمداً ﷺ ما كان يعرف غير الجزيرة العربية، وأنها وحدها كانت عالمه الذي لم يفكر في سواه، وأنه لم يوجه دعوته إلا للعرب دون غيرهم وظل على ذلك إلى أن مات: (٣)

وقد انضم إلى هذين الرجلين في عبث القول المستشرق (جولد تسيهر) الذي نقل عبارة (لأنتول فرانس) تقول إن من أسس ديناً لا يدري ماذا يفعل. فقال: وهذه الكلمة تنطبق أفضل انطباق على محمد... فمحمد عندما جاء بالإسلام لم يكن يدري - كما تصور جولد تسيهر - أن دينه سيتشتر، ولم يكن يدري على - فرض انتشاره - أنه سيدخل هذه البقاع الفسيحة من الأرض.

(١) (كسرى) ملك الفرس.

(٢) (هرقل) ملك الروم ويطلق عليه قيصر.

(٣) انظر: كتاب دراسات استشرافية، ص ٢١٠ عدد من الباحثين، والاستشراق تاريخه وأهدافه، ص ١٣٢

د/أحمد شلبي، والغزو الفكري أبعاده ومواجهته، ص ٦٨ د/عبد العزيز تمام..

وتبعاً لعدم الدراية بهذا السير للإسلام، وعدم الإدراك لامتداده هنا وهناك لم يزوده محمد بالأصول المناسبة لهذا التوسع.^(١)

وهكذا وبكل سذاجة يحاول هؤلاء أن يبعدوا عن الرسالة التي جاء بها المصطفى ﷺ عالميتها.

بل ويقرروا أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يدري وهو يؤسس دينه ماذا يفعل ولا أن الناس سيدخلون من كل مكان في هذا الدين.

ولمؤلاء ومن سار على دربهم ممن ينكر عالمية هذا الدين أقدم الأدلة والبراهين على أن النبي ﷺ كان يعلم علم اليقين أن رسالته للثقلين أجمعين، وأن دينه أوسع دائرة من أديان الأنبياء السابقين الذين كانوا يهدون من حولهم من الناس فقط، بينما هدايته عليه الصلاة والسلام للعالمين. وإن غالط في ذلك المغالطون وافترى على الرسالة المستشرقون الحاقدون.

الأدلة على عالمية الرسالة الإسلامية

وهاك الأدلة والبراهين على عالمية الرسالة الإسلامية وكذب المستشرقين وهي كثيرة ومتنوعة نذكر منها:

أولاً: أدلة نصية من القرآن الكريم:

وقد تلاها على أسمع الناس النبي الكريم وتعبد بها المسلمون عبر القرون، ونقلت إلينا بالتواتر المصون وبها أيقن كل مسلم في كل زمان ومكان، وها نحن نقلها كما أنزلت على قلب سيد الأنام عليه الصلاة وأتم والسلام.

١- قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾^(٢)

(١) راجع العقيدة والشريعة في الإسلام ص ٤٣-٤٦.

(٢) سورة النساء، من الآية: ٧٩.

٢- وفي سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِن أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

٣- وفي سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ
نَذِيرًا﴾ (٢).

٤- وفي سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٣).

٥- وفي سورة الأعراف: ﴿قُلْ يَتَّيْبُهُمُ النَّاسُ إِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّكُمْ جَمِيعًا﴾ (٤).

وغير ذلك الكثير من الآيات في كتاب الله العزيز وكلها تدل على عموم رسالة
المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى الناس جميعاً، وهذه إحدى خصائصه التي انفرد
بها ﷺ عن الأنبياء قبله.

وقد فهم المفسرون ذلك جيداً في تعليقاتهم على الآيات السابقة، ولنختار ما
قاله الإمام (أبو جعفر الطبري) - رحمه الله - حول الآية الأخيرة من سورة الأعراف
فيقول: «قل يا محمد للناس كلهم إني رسول الله إليكم جميعاً لا إلى بعضكم دون
بعض كما كان من قبلي من الرسل مرسلأ إلى بعض الناس دون بعض، أما رسالتي
فهي إلى جميعكم» (٥).

إذن فهي ليست للعرب فقط كما زعم المستشرقون.

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٥) راجع تفسير الطبري، ج ٩ ص ٨٦.

ثانياً : أدلة من السنة :

وهي بمثابة أقوال أدلى بها الرسول ﷺ لأمته لكي يعلم المستشرقون بما فيهم (جولد تسيهر) أن الرسول ﷺ كان مدركاً لمهمته المكلف بها من رب العالمين ، وأنه ﷺ يدري أجود دراية أن دينه سيعلو... وأن الشبهات التي توارثها الحائرون ستنجلي غيومها غيمة إثر غيمة.

ومما قاله النبي ﷺ :

١- ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال : «فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وخُتم بي النبيون»^(١)

٢- كذلك ما رواه أحمد في مسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : «لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلي : أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم»^(٢)

٣- وأيضاً ما أخرجه أحمد^(٣) والطبراني^(٤) عن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «بعثت إلى الأحمر والأسود»

٤- وروى البخاري^(٥) والنسائي^(٦) عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ ذكر ما فضل به عن غيره من الأنبياء.

(١) صحيح مسلم ، ج ١ ص ٣٧١ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٢) المسند ، ج ٥ ص ٢٥٦ قال الهيثمي ورجاله ثقات ، ج ١٠ ص ٣٦٧ ، من مجمع الزوائد ، وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح ، ج ١٣ ص ٢٦ من المسند بتحقيقه.

(٣) المسند ، ج ٤ ص ٤١٦.

(٤) مجمع الزوائد ، ج ٢ ص ٢٥٨ وقال : (ورجال الطبراني رجال الصحيح).

(٥) السنن ج ١ ص ٢٠٩

(٦) ج ١ ص ٩١

ومما ذكره قوله ﷺ: «٠٠٠» وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة التي نقلتها كتب السنن عن المصطفى ﷺ وكلها تصرح لنا وللمستشرقين ولكل الناس بعمومية الرسالة إلى قيام الساعة. فالنبي ﷺ كان - مصراً في أقواله - على حد تعبير الشيخ «الغزالي» على أن الإسلام ليس ديناً محلياً يتصل بهؤلاء العرب وحدهم بل هو دين يعني كل من بلغه من خلق الله ويكلف كل ذي سمع وبصر باتباعه.^(١)

ثالثاً : أدلة تطبيقية :

وهي بمثابة ترجمة فعلية لما كلف به النبي ﷺ من قبل خالقه من تبليغ في دنيا الواقع ، فالنبي ﷺ لم يجس رسالته في الجزيرة العربية كما تخيل (وليم ميور) و(شك كبناني) بل جعل الرسالة تعبر خارج الجزيرة وتصل إلى ملوك العرب والعجم عن طريق سفراء من أصحابه وما كان ذلك إلا تنفيذاً لأوامر الله عز وجل القائل له :

﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٢)

وصدع النبي بالأمر بالفعل وما توانى لحظة عن التبليغ ، ففي السنة السادسة من الهجرة وفي عقب صلح الحديبية الذي تم بين قريش والنبي ﷺ :

١- أرسل سفيره دحية الكلبي برسالة إلى هرقل ملك الروم ، وقد ذكر مسلم في صحيحه نص الرسالة الذي يدعوه المصطفى ﷺ هرقل إلى الإسلام وفيه يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام - أي بدعوته - أسلم تسلم ، وأسلم يؤتتلك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فعليك إثم الأريسيين.^(٣)

(١) انظر: دفاع عن العقيدة والشريعة، ص ٥٣ الشيخ محمد الغزالي.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩٤.

(٣) أي عليك إثم رعابك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك في أشهر الأقوال. راجع هامش ص ١٣٩٦ صحيح مسلم ج ٣.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١)

٢- ولم يكتب النبي ﷺ بدعوة هرقل، بل ذكر مسلم أيضاً في صحيحه أن النبي ﷺ كتب إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل. (٢) فعن قتادة عن أنس أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى (٣) وإلى قيصر (٤) وإلى النجاشي (٥) وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى (٦) برسائل مشابهة.

٣- كذلك بعث ﷺ برسائل أخرى إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية مع حاطب ابن أبي بلتعة، وإلى المنذر بن ساوى ملك البحرين مع العلاء بن الحضرمي، وإلى هوزة بن علي صاحب اليمامة مع سليط بن عمرو العامري وإلى جيفر وعبد ابني الجلندي صاحبي عُمان مع عمرو بن العاص، وإلى الحارث بن أبي شمر الغساني مع شجاع بن وهب من بني أسد.

وبعد وصول رسائله عليه الصلاة والسلام إلى هؤلاء جميعاً كان منهم من أسلم ومنهم من رد رداً جميلاً ومنهم من تكبر وتغطرس.

وعلى كل فالغاية قد تحققت من هذه الرسائل حيث قد بلغ النبي دعوة ربه ودعاهم جميعاً إلى الإسلام، ويُنن لهم أنه رسول رب العالمين إلى كل العالمين وليس للعرب وحدهم (٧) كما ظن الحاقدون.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) صحيح مسلم، ج ٣ ص ١٣٠٦، كتاب الجهاد والسير باب ٢٦.

(٣) (كسرى) بفتح الكاف وكسرهما وهو لقب لكل من ملك من ملوك الفرس.

(٤) (قيصر) لقب من ملك الروم.

(٥) النجاشي لقب من ملك الحبشة. والنجاشي المذكور ليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ.

(٦) صحيح مسلم، ج ٣ ص ١٣٩٧ باب ٢٧.

(٧) للمزيد راجع قضايا معاصرة في ضوء الإسلام، ص ١٠٤ د/ حلمي عبد المنعم. وخصائص الدعوة

الإسلامية، ص ١٥٣- ١٦٣ محمد أمين حسن..

٤- ولم يكتب عليه الصلاة والسلام بالرسائل والإنذارات فقط بل أعد في حياته جيشاً وأرسله إلى مؤته على مشارف الجزيرة العربية من ناحية الشمال ، وكذلك قاد بنفسه غزوة تبوك وأعد أيضاً جيش أسامة بن زيد ولكنه قبض قبل سفر الجيش فأرسله أبو بكر - رضي الله عنه - وأنفذه حيث كان الرسول يريد على مشارف الجزيرة العربية.^(١)

والناظر يرى أن كل هذه الجيوش بمثابة الخطوات العملية في تبليغ دعوة الإسلام خارج نطاق الجزيرة وليس هدفها إراقة الدماء بل إفساح الطريق أمام الدعوة والرسالة لكي تصل إلى كل أحمر وأبيض في آفاق الدنيا ، وقد نفذ الصحابة بعد رسول الله ﷺ وأوصلوها ، فهل يليق بعد ذلك قبول مزاعم المستشرقين في أن الرسول ﷺ لم يكن يفكر يوماً ما في تبليغ رسالته خارج الجزيرة ، وأنه ظل إلى أن مات يدعو العرب فقط ، أليست هذه الرسائل والوثائق التاريخية بمثابة جهاز كشف كذب - إن صح التعبير - عما أخبر به المستشرقون تجاه عمومية رسالة النبي الكريم ﷺ.

رابعاً : ولنحتكم إلى المنطق والعقل إن كان للمستشرقين منطق وعقل وأقول :

١- طالما أنكم اعترفتُم أن محمداً ﷺ أتى برسالة إلى العرب خاصة -على حسب زعمكم- فإنه يلزمكم منطقياً تصديقه بعد ذلك في كل ما يخبر به وقد قال إنه رسول الله إلى الناس عامة والرسول لا يكذب فلزم تصديقه حتماً^(٢) لأنه لم يجرب عليه كذب ولو مرة طوال حياته ومن كان كذلك لا يصح تكذيبه. وهو القائل لكم ولأمثالكم «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(٣).

(١) انظر: قضايا معاصرة ص ١٠٤.

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص ١٧٠ لأبي العز الدمشقي.

(٣) رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - ج ١ كتاب الإيمان، باب ٧٠ رقم ١٥٣ ص ١٣٤.

٢- إن هذا الدين في ضوء المعايير العقلية للناس هو وحده دون غيره من الأديان الذي يصلح أن يكون ديناً عالمياً للناس كافة وما ذلك إلا لأن رسالته تحمل جميع مقومات العالمية.

مقومات العالمية

مقومات العالمية يمكن تلخيصها في النقاط التالية :

أ- المساواة بين الناس وإلغاء العنصرية وهذه خطوة أولى على طريق العالمية. فالدين الذي يجب أن يكون عالمياً لا يصح أن يفضل جنساً على آخر، ولا غنياً على فقير، ولا قوياً على ضعيف. بل الناس جميعاً يجب أن يكونوا سواسية كأسنان المشط، وهذا هو ما دعى إليه من شرع لنا الإسلام ديناً سبحانه حين قال: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ ۗ﴾^(١) فمعيار التفاضل هو التقوى لا غير.

وهذا الأمر غير متوفر عند اليهود ولا النصارى الذين يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ ۗ﴾^(٢) ولا في أي حضارة أخرى على وجه البسيطة.

ب- تلبية نداء الفطرة الإنسانية وتحقيق التوازن بين مطالب الجسد والروح. وهذه خطوة أخرى يجب أن يتمتع بها الدين الذي يريد أن تكون له صفة العالمية. ذلك لأن الإنسان لها اختلفت لغته وبيئته وحضارته فهو أولاً وأخيراً خلقه الله من الطين وسواه، ثم نفخ فيه من روحه وعلى ذلك فالجسد له مطالب وللروح مطالب أخرى ولا بد من تحقيق الأمرين معاً؛ لأن هذه أمور فطر عليها الإنسان، فإذا كانت مطالب الجسد متمثلة في إشباع غرائزه وشهواته ومطالب الروح متمثلة في السمو والإشراق. فلا يصح إهمال أحدهما بل لا بد من التوازن بين المطالبين وعدم الإهمال.^(٣)

(٢) سورة المائدة من الآية ١٨

(١) سورة الحجرات آية ١٣.

(٣) انظر: قضايا معاصرة ص ١٠٢ - د/ حلمي عبد المنعم. بتصرف.

وهذا التوازن لم يلبيه إلا الإسلام بتعاليمه السمحة فيقول لآدم - عليه السلام - ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا مَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ (١) ثم يقول في قصة قارون: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴿٢﴾﴾ ثم يقول في موضع آخر موازناً بين الحزن والفرح: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴿٣﴾﴾.

ثم يأمر عباده جميعاً بأن يلبوا مطالب الروح في العبادة ثم يسعوا في الأرض ليلبوا مطالب الجسد: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤﴾﴾.

وهذا التوازن مفقود في اليهودية التي اعتنت بالجسد فقط فوصفت بالمادية، ومفقود في النصرانية التي اعتنت خاطئاً بالروح فقط فوصفت بالرهبانية. قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴿٥﴾﴾.

ج- وجود نظام تشريعي شامل لكل مناحي الحياة: وهذه الخطوة مهمة جداً على طريق العالمية: فالدين الذي يريد أن يأخذ هذه الصفة - لا بد أن يكون فيه تشريعات متكاملة وصالحة لكل الناس في كل الأمكنة والعصور، وهذه التشريعات مفقودة في اليهودية كما نعلم؛ لأن الله حرم على اليهود بسبب آثامهم وظلمهم كثيراً من الطيبات: ﴿فَيُظَلِّمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴿٦﴾﴾.

(١) سورة طه، الآيتان: ١١٨-١١٩.

(٢) سورة القصص، من الآية: ٧٧.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

(٤) سورة الجمعة، من الآية: ١٠.

(٥) سورة الحديد، من الآية: ٢٧.

(٦) سورة النساء، من الآية: ١٦٠.

فكثير من التشريعات التي تحتاجها البشرية مفقود في اليهودية، وكذلك الأمر في النصرانية، لأنها لا تملك تشريعاً بل هي معتمدة على ما في اليهودية؛ لذلك نرى النصارى قد ضموا إلى أنجيلهم كتب اليهود وسموا الجميع الكتاب المقدس. ولو كانت عندهم تشريعات ما فعلوا ذلك.

أما الإسلام فهو وحده الدين الغني بكل التشريعات المتكاملة والصالحة لكل زمان ومكان. «وكان من مظاهر شمول الشريعة الإسلامية إحاطتها بجميع مجالات الإنسان ومراحل حياته، فلم تترك جانباً إلا بحثته وأبانت فيه حكماً وكذلك تحدثت في جميع المجالات الثقافية والفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية الدينية والدينية، كل ذلك شملته الشريعة بأدائها وتوجيهاتها»^(١)

وصدق من قال: ﴿ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾^(٢).

د- وجود نظام أخلاقي متكامل: وهذا النظام مهم جداً على طريق العالمية؛ لأنه سيحفظ للإنسان كرامته في شكل مهذب يتلاءم مع تكريم رب الإنسان للإنسان ويرتفع إلى المثل الأعلى في ظل مجتمع فاضل كريم، فلا نجد في ظل هذا النظام غشاً ولا خداعاً ولا كذباً ولا ظلماً وإنما حب وتراحم وسلام وتعاون وبر ونجدة وتكافل، وهذا الأمر بتمامه موجود ومتكامل في الإسلام أكثر من غيره.

فالإسلام يطالب اتباعه ويلزمهم بضرورة التحلي بالأخلاق الفاضلة مع النفس من حيث الاعتناء بتهدئتها: ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾^(٣) وفي البيت مع الزوجة: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(١) خصائص الدعوة الإسلامية ص ٢٣١ - محمد أمين حسن، وللمزيد راجع قضايا معاصرة ص ١٠٢ د/
 حلمي عبد المنعم، وأساليب الدعوة الإسلامية ص ١٧٥ د/ أحمد بن ناصر العمار.
 (٢) سورة المائدة، من الآية: ٣.
 (٣) سورة لقمان، من الآية: ١٩ (٤) سورة النساء، من الآية: ١٩.

ومع الأقارب خارج محيط البيت والمساكين: ﴿وَأَتَىٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾^(١)، وفي محيط المجتمع يراعي آداب احترام البيوت وعدم كشف عوراتها ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢).

وفي البيع والشراء: ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾^(٣) وفي المعاملات الاقتصادية الأخرى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾^(٤).

وفي الأمانة والسياسة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾^(٥).

وكذلك يطلب الإسلام حسن التعامل حتى مع البهائم والحيوانات: «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها وسقتهها إذ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»^(٦).

وكذلك دخل رجل الجنة في كلب إذ رآه يلهث من العطش فوق بئر فنزل فسقاه بحفه. ولذلك قال الصحابة: «يا رسول الله، وإن لنا في هذه البهائم لأجراً فقال: في كل كبد رطبة أجر»^(٧). إلى غير ذلك من الفضائل الأخلاقية المتكاملة والتي في ظلها تنتظم مسيرة الحياة، وهي لم توجد متكاملة إلا في هذا الدين القويم.

(١) سورة الإسراء، من الآية: ٢٦.

(٢) سورة النور، الآية: ٢٧.

(٣) سورة الإسراء، من الآية: ٣٥.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ٢٨٢.

(٥) سورة النساء، الآية: ٥٨.

(٦) أخرجه مسلم في كتاب السلام باب تحريم قتل البهرة، ج ٤ ص ١٧٦٠ رقم ٢٢٤٢.

(٧) في كل كبد رطبة أجر - أي في الإحسان إلى كل حيوان حي يسقيه، وسمي الحي ذا كبد رطبة؛ لأن الميت يجف جسمه وكبده، والحديث أخرجه مسلم، ج ٤ ص ١٧٦١ رقم ٢٢٤٤.

هـ- وأخيراً وجود عقيدة واضحة وصافية، وهذا الأمر أهم شيء في مقومات العالمية؛ ذلك لأن الناس إن وجدوا عقيدة واضحة وغير معقدة يمكنهم حينئذ الانتظام والتجمع والاستقرار في ظلها.

وهذه العقيدة لا توجد في غير الإسلام، إذ هو يدعو الناس كل الناس إلى الاعتقاد في رب واحد أحد لا هو مصور بصورة مادية^(١) ولا هو مكون من أجزاء أو أقانيم ثلاثة^(٢) ولا مصنوع بيد البشرية. كما في الأديان الوثنية، كما يبعدهم عن عبادة المال أو الهوى أو النظام أو المادة أو العلم كما هو مشهور في الحضارة الغربية.

إنهم باختصار يتركون عبادة الطاغوت إلى عبادة الله الواحد^(٣) الذي لا شبيه له ولا مثيل. مالك لكل شيء وقادر على كل شيء ورازق لكل شيء.

هو الذي يهب الكثير ويجبر

القلب الكسير ويغفر الزلات

ويقول هل من تائب مستغفر

أو سائل أقضي له الحاجات

ما أكرمه ما أحلمه ما أعظمه !! إن كانت ذنوب العبد لها حد وغاية فإن عفوه لا حد له ولا نهاية. شرع من أنواع العبادة والطاعات ما تصفو به نفوس العباد وتطهر به الأرواح ويحقق لهم السكينة والأمن، تلك السكينة التي يتطلع إليها الناس في هذا العصر وفي كل عصر ولا يمكن تحقيقها إلا في ظل دين الإسلام وعقيدته الغراء.

(١) وهذا واضح في اليهودية.

(٢) كما هو في التصور المسيحي والأفانوم كلمة سريانية يطلقها السريان على كل متميز عن سواه على شرط أن يكون مما شخص وله ظل؛ ولذلك فإنه يراد به التعيين، بيد أن النصارى اتخذوه وأطلقوه على الآب والابن والروح القدس وقالوا: هو في الحقيقة واحد بلا توحيد - راجع المسيحية ص ١٦٢ د/ عبد المنعم فؤاد.

(٣) للمزيد انظر: قضايا معاصرة، ص ١٠٣، وأساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة، ص ١٩٤.

فتلك هي أهم مقومات العالمية التي لا تقتصر إلا على الإسلام أقدمها لكل مستشرق عنيد من أمثال (وليم ميور وكبناني وجولد تسيهر) وغيرهم (وجولد تسيهر) على وجه الخصوص الذي قال في كلمته سالفه الذكر «إن محمداً لم يزود دينه بالأصول المناسبة لهذا التوسع في العالم». قائلًا له : هذه هي المقومات والأصول ، فإن كانت لديكم مقومات وأصول شبيهة لها فاعرضوها ، على العالم كما نعرضها ، وقدموها للإنسانية كما نقدمها بدون استحياء أو خجل ، فنحن نعلم أننا على حق ، وأن نبينا ﷺ أتى بالحق وعليه الحق نزل ، أما أنت فيهودي الديانة ولم نسمع في التاريخ أن اليهودية جاءت لكل العالمين بل هي قاصرة على بني إسرائيل ، فحسب وإذا كان اليهود الآن موجودين في كل البلاد فهؤلاء ليسوا من أبناء إسرائيل (يعقوب) عليه السلام ، بل هم بمثابة قطاع طرق لفظتهم المجتمعات وحبستهم في بيوت أو حارات فأصبح لهم في كل بلد حارة ، والآن يتجمعون في فلسطين بدون وجه حق ، ولكننا في أمة الإسلام نعلم أن هذا التجمع هو بداية النهاية قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ حِثًّا بِكُمْ لَبِيفًا ﴾ ^(١) وستكون النهاية على أيدي المسلمين إن شاء الله ، ويشهد بذلك الحجر وكل آت قريب.

النصرانية ليست ديانة عالمية

كما أقول لكل مستشرق نصراني : إن نصرانيتك لا تصلح أن تكون ديانة عالمية لأنها :

أولاً : لا تحمل هذه المقومات - سالفه الذكر -

ثانياً : لم يوجد أي خبر صحيح في كتبكم يفيد بأن المسيح جاء للعالم أجمع بل حدد

مهمته قائلًا كما جاء في إنجيل متى : «لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة» ^(٢).

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ١٠٤ .

(٢) إنجيل متى إصحاح ١٥ / فقرة ٢٤ .

وقال لتلاميذه في نفس الإصحاح: «إلى طريق الأمم لا تمضوا وإلى مدينة السامريين لا تدخلوا بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بني إسرائيل الضالة»^(١) هذه هي دائرة التبشير بالنصرانية التي حددها المسيح وبين مناطقها.

فإن قال قائل: هناك نص في آخر إنجيل مرقس يقول فيه المسيح لتلاميذه «اذهبوا إلى العالم أجمع وأكرزوا بالإنجيل للخليفة كلها»^(٢).

فإني أقول:

إن هذا النص مكذوب على المسيح - عليه السلام - ومزور وأكبر دليل على كذبه ما نقلناه عن المسيح الآن من إنجيل متى بالإضافة إلى أن الباحثين من المسيحيين وغيرهم أثبتوا تزوير هذا النص. وإقحامه في إنجيل مرقس عن طريق كاتب مجهول غير مرقس صاحب الإنجيل. وقبل هذا النص كجزء من الإنجيل حوالي عام ١٨٠ م علماً بأن مرقس قد انتهى من كتابة إنجيله بين عامي ٦٥ : ٧٥ من الميلاد.^(٣)

ولذلك عومل هذا النص من الإنجيل في النسخة القياسية المراجعة للكتاب المقدس وهي المترجمة بالإنجليزية وتم نشرها عام ١٩٥٢ م وتعرف بنسخة الملك جيمس وأيضاً في الترجمة الفرنسية الحديثة للكتاب المقدس. عومل على أنه نص غير شرعي ومزور وتم وضعه في الهامش، وبذلك شهد أكثر من اثنين وثلاثين عالماً نصرانياً من مختلف الطوائف المسيحية، فهل يليق بعد ذلك قبول القول بأن هذا النص يدل على عالمية النصرانية؟!

وإن فرضنا جداراً أنه يدل على العالمية فهل النصرانية تحمل أناجيلها تشريعاً مستقلاً عن اليهودية يتناسب مع كل البشر؟

(١) إنجيل متى إصحاح ١/٥: ٦.

(٢) إنجيل مرقس إصحاح ١٦/١٥ وذكره متى إصحاح ٢٨/١٩ ولوقا إصحاح ٢٤/٤١.

(٣) راجع حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ص ١١٦ - ١١٨ وللمزيد راجع اختلافات في تراجم الكتاب المقدس ص ٤٠ - ٤١ م / أحمد عبد الوهاب.

وهل التشريع اليهودي المقتضب - كما أشرنا من قبل - يمكنه تسيير حركة الخلائق في العالم وانسجامهم مع الحياة؟

إنني أترك الإجابة لمستشرق عاقل يسمى (فيلويز)^(١) كان نصرانياً فهداه الله للإسلام. أتركه لكي يلقي إجابته على أسماع المستشرقين الحاقدين في كل أنحاء العالم على الإسلام وعالمية رسالته يقول فيلويز:

«الإسلام - وحده - يستطيع أن يحقق الانسجام التام مع الحياة في هذا العالم. فهو دين سهل لا التواء فيه ولا تعقيد ومباشر، مجرد من كافة الافتراضات التي لا سبيل إلى الإيمان بها. وأشكال العبادة في الإسلام تعكس كل صدق وإخلاص وأمانة».

ثم يقول: «... إن الإسلام هو دين العلم.. وقد أصبحت مسلماً لأن هذا الدين هو الدين الحق الوحيد نظرياً وعملياً، ومن كافة الوجوه، وسرعان ما تبدد الشكوك والشبهات دفعة واحدة عندما تجيش نفسي بشعور قوي يملكها وهو أن الإسلام هو الصراط المستقيم».^(٢)

وتصدق على هذا القول المستشرقة «جميلة قرار»^(٣) وقد هديت هي أيضاً إلى الإسلام وتقول:

«... أعجبنى الإسلام أن يكون ديناً عالمياً فقد وجدته ديناً يوحد جميع الأديان والألوان في ظل نظام ديني فريد فهناك - مساواة - وأخوة حقيقية بين المسلمين لا ولم

(١) ح. ف. فيلويز ضابط بحرية بريطاني نشأ في بيئة نصرانية وشارك في الحربين العالميتين الأولى والثانية، قرأ عدداً من المؤلفات الإسلامية وأعلن إسلامه. راجع قالوا عن الإسلام ص ٢٠٩.

(٢) رجال ونساء أسلموا، ج ٦ ص ٥٤-٦٢ - وقالوا عن الإسلام، ص ٢٠٩.

(٣) ولدت عام ١٩٤٩ في النمسا لأبوين ملحدين وحاولت أن تكون مسيحية إلا أن النصرانية لم تستطع إقناعها فالتحمت إلى الإسلام وقرأت عنه ثم اتخذته ديناً وهي في العشرين من عمرها - للمزيد راجع قالوا عن الإسلام ص ٢١٠.

يعرف مثلها المجتمع الغربي على الإطلاق، كما لا تستطيع العبارات الجوفاء كالشيوعية مثلاً أن تقدم مثلها أبداً»^(١).

ونختم حديثنا للمستشرقين جميعاً بما قاله (باتيل)^(٢) المستشرق الهندي عن سر قوة الإسلام وسريانه في جميع أنحاء العالم أكثر من أي دين آخر.

فيقول:

«لقد أيقنت أن الإسلام هو المنهج الصحيح الذي يحقق غاية الوجود الإنساني، فهو يمتاز بالبساطة والواقعية والاستعلاء والحساسية والشمول ويحترم كافة الأديان ويوقر جميع الأنبياء...»

ثم ينتهي إلى القول:

بأن قوة الإسلام في ذاته، في خصائصه الروحية وشموله، وهذا هو سر غلبته في النهاية^(٣) - على الجميع - وصدق من قال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٤).

المبحث الثالث

افتراءات المستشرقين على المعجزات النبوية والرد عليها:

لما كانت المعجزة مأخوذة لغوياً: من العجز المقابل للقدرة^(٥) واصطلاحاً: هي الأمر الخارق للعادة الذي يظهره الله على يد مدعي النبوة وفق مراده تصديقاً له في دعواه مع عجز المكلفين عن المعارضة^(٦).

(١) نفسه ص ٢١٠.

(٢) اسمه بشير أحمد عبد الرحمن باتيل، ولد في الهند عام ١٩٢٩م ولم يجد في دين آبائه ما يقنعه فانقلب إلى الشيوعية فلم تلبّ مطالبه فنقب بين الأديان وأخيراً وجد مستقره في الإسلام، ويعمل الآن أستاذاً للغة الإنجليزية في دار السلام عاصمة تنزانيا - راجع قالوا عن الإسلام ص ١٥٧.

(٣) رجال ونساء أسلموا ج ١ ص ١٩، ٢١ وقالوا عن الإسلام ص ١٥٧.

(٤) سورة آل عمران، من الآية: ١٩.

(٥) لسان العرب لابن منظور، ج ٥ ص ٣٦٩ - ٣٧٠ دار صادر بيروت.

(٦) انظر الإثنان في علوم القرآن للسيوطي. ج ٢ ص ١١٦ وفي نور العقيدة د/ المسير ص ٥١.

فهي إذن من مؤيدات الرسالة أو إن صح التعبير فهي أشبه بالبطاقة أو الجواز الذي يحمله الشخص لإثبات هويته ووظيفته.

ولما كان نبينا ﷺ قد أيد بمجشد هائل من المعجزات وخورق العادات الحسية بجوار المعجزات المعنوية الخالدة (القرآن الكريم) فإن المستشرقين كما هو دأبهم أقدموا على الافتراءات والتشكيك في هذه الخوارق. وزعموا أن النبي ﷺ اعترف بأنه لا يستطيع أن يأتي بآية كما شككوا في أبرز الآيات والمعجزات خاصة تلك التي تحدث عنها القرآن الكريم مثل الإسراء والمعراج وانشقاق القمر الخ.

١- وها هو أحدهم والذي يدعى نيكولسون يزعم أن اعتراف النبي ﷺ بعدم قدرته على عمل المعجزات - في بعض آيات القرآن - لم يمنع أتباعه من اختراعها بعد موته. فقد قيل أنه جعل الكافرين يرون القمر منفطراً: ﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقَّ الْقَمَرُ ﴾^(١) ثم ينتهي إلى القول بأن هذه علامة من علامات يوم القيامة.

٢- أما الإسراء والمعراج عنده رؤيا منامية لا واقع حقيقي^(٢)

٣- ويميل إلى تأييده في ذلك المستشرق (شريك Schrieke) الذي كتب مقالة في دائرة المعارف الإسلامية بدأها بالتشكيك في ذكر موضع آية الإسراء في مطلع سورة الإسراء قائلاً: لسنا نعرف إذا كانت هذه الآية: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى ﴾ هي في الأصل من سورة الإسراء أم لا؟^(٣)

ثم يوهم القارئ بأن رحلة الإسراء لم تكن حقيقية وإنما منامية، ويدعي أن قصتها المتضمنة صلاة النبي بالأنبياء في بيت المقدس قد نسجت على منوال قصة ظهور

(١) سورة القمر، الآية: ١.

(٢) نقلاً عن الجبيلي محمد (المستشرق نيكولسون) ومفترياته على الإسلام، ص ٢٨٣، ٢٨٩، Nicholson.N.R
.Aliterary History Of The Arabs P. Ibb. 169

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ج ٢ ص ١٠٦.

عيسى على جبل تابور التي ذكرتها الأناجيل،^(١) ومن أدلة التشكيك على عدم صحة وقوعها عنده أنه قد ورد فيها على حسب زعمه أن النبي ﷺ خاطب ربه في السماء سبعين ألف مرة مع أن الرحلة قد تمت على جناح السرعة بحيث أنه لما رجع كان فراشه ما زال دافئاً^(٢) أي أن النبي ﷺ غير صادق في إخباره عن المعراج.

٤- ثم يأتي بعد ذلك المستشرق (كاراد فو Carrade Vaux . B) ويتحدث عن البراق الذي امتطاه النبي ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج ويقول: (البراق) أطلق هذا الاسم الذي يتصل باسم البرق في الأساطير للدلالة على حيوان خرافي امتطاه النبي ليلة المعراج... وقد وشيت هذه الأسطورة كثيراً وأصبحت باعثاً من البواعث المحبوبة التي توحى إلى الشعراء وأهل الفن... ثم يذكر صوراً فارسية عجيبة الشكل.. لكي يؤكد أن البراق أسطورة مخترعة^(٣) الخ.

نقد هذه الافتراءات :

أولاً : ثبوت المعجزات لنبينا ﷺ :

إن ما قاله (نيكولسون) من أن النبي ﷺ اعترف بعدم قدرته على الإتيان بالمعجزات في بعض آيات القرآن قول لا ينفي أن النبي لم يأت بمعجزة ، إذ المعجزة للنبي أمانة على الحق وعلامة على صدقه ، ولقد نقل الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله «أن الإمام النووي ذكر أن معجزات النبي ﷺ تزيد على ألف ومائتين»^(٤)

وقال البيهقي في المدخل : بلغت ألفاً.^(٥)

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٢ ص ١٠٨ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٠ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٣ ص ٤٨٥ .

(٤) مقدمة النووي على شرح صحيح مسلم ، ج ٢/١ .

(٥) دلائل النبوة للبيهقي ، ج ١/١ .

وقال الزاهدي من الحنفية: ظهر على يديه ألف معجزة، وقيل: ثلاثة آلاف^(١).

وقال بعض العلماء: ومعجزات نبينا ﷺ كثيرة لا تنحصر، وفي كلام بعضهم أنه ﷺ أعطي ثلاثة آلاف معجزة يعني غير القرآن، فإن فيه ستين أو سبعين ألف معجزة.^(٢) فلا يصح بعد هذه الأقوال أن يأتي واحد غريب عن ديننا معروف بنيته تجاهنا ليخبر عن نبينا ﷺ بأنه لم يأت بمعجزة، وإن كان فهم أن النبي ﷺ اعترف بذلك في بعض الآيات مثل قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِيلِينَ﴾^(٣). فهذا فهم الأغبياء.

أ- لأن معنى الآية أن الكفار استعجلوا النبي ﷺ بأن يأتيهم بالعذاب فتلا عليهم: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي من العذاب، فهو ينزل عليكم في الوقت الذي أراد الله إنزاله، إن شاء عجل وإن شاء أخر وأجل لما له في ذلك من الحكمة. ولا قدرة لي على تقديمه أو تأخيره^(٤) وعلى ذلك فالآية لا تدل على أن محمداً ﷺ لا يستطيع أن يأتي بمعجزة.

ب- وإن فهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلُوبُهُمْ إِنَّمَا أَلَايْتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٥) فإن منع هذه الآيات كان رحمة بهم؛ لأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وبعد ذلك يدخلون في الدين، فنزل جبريل مخبراً نبي الله ﷺ بأن هذا الطلب ما هو إلا تعنتاً وكفراً وعناداً وليس على سبيل الهدى والاسترشاد، وإن شئت يا محمد أصبح الصفا ذهباً فإن لم يصدقوا بعد ذلك ليعذبهم الله وإلا فاتركهم حتى يتوب تائبهم فقال ﷺ بل يتوب تائبهم.

(١) فتح الباري لابن حجر، ٥٨٣/٦، وأساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة، ص ١٠٧.

(٢) أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة ص ١٠٧.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٧.

(٤) راجع تفسير الطبري جامع البيان ٣٩٨/١١ وتفسير ابن كثير ١٤٤/٢.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.

إذن فالآية تخبر أن طلب الكفار كان على جهة التعجيز؛^(١) لذلك منعوا من تحقيق طلبهم رحمة بهم منه ﷻ.

ج- وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿١٠١﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ حِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿١٠٢﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كَسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿١٠٣﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٠٤﴾﴾.^(٢)

أي نزه ريبك ومجده وأعلم أن هؤلاء سؤالهم مردود عليهم؛ لأن قصدهم ليس طلب الدليل بل تعنتاً وعناداً، والله أعطى نبيه من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله^(٣).

هكذا قال المفسرون عندنا، ولم يقل واحد أن في الآية عدم قدرة على الإتيان بالمعجزات كما زعم نيكولسون. ويفهم هذا الرجل أنه ليس بلازم على الأنبياء الإتيان بالآيات والمعجزات كلما اقترح الكافرون، ألم يقرأ نيكولسون ومن سار على نهجه أن الفريسيين في إنجيل مرقس «طلبوا من المسيح أن يأتيهم بآية من السماء لكي يجربوه فتنهد بروحه وقال لماذا يطلب هذا الجيل آية الحق أقول لكم لن يعطى هذا الجيل آية»^(٤).

وكذلك في إنجيل لوقا جاء ما نصه: «وأما هيرودس فلما رأى يسوع -المسيح- فرح فرحاً شديداً؛ لأنه كان يريد من زمان طويل أن يراه لسماعه عنه أشياء كثيرة وترجى أن يرى آية تُصنع منه وسأله بكلام كثير فلم يجبه»^(٥).

(١) راجع تفسير ابن كثير ١٧٢/٢ بتصرف، والطبري جامع البيان ١٢/٤٠، ٤٣.

(٢) سورة الإسراء، الآيات: ٩٠-٩٣.

(٣) راجع مختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل، ج ١ ص ٥٢٥، ٥٢٦ بتصرف.

(٤) إنجيل مرقس إصحاح ١١/٨.

(٥) إنجيل لوقا ٨/٢٣.

فهل يعني ذلك أن المسيح عليه السلام عاجز عن أن يأتي بآية؟ إن نيكولسون والنصارى معه لا يقبلون ذلك، لأن المسيح عند النصارى إله، تعالى الله عما يقولون: والإله لا يوصف بالعجز فماذا يقول نيكولسون عن المسيح حينئذ؟

بل ماذا يقول يوحنا الذي ذكر أنه كان يُعمد في الأردن ولما ذهب المسيح إلى هناك فراراً من اليهود «أتى إليه كثيرون وقالوا إن يوحنا لم يفعل آية واحدة»^(١) ويوحنا باتفاق أهل الإنجيل نبي ولم يقدح في نبوته عدم إتيانه بالمعجزات.

فكيف يقدح حينئذ في نبينا ﷺ ومعجزاته ثابتة بالقطع ولا شك في وقوعها منه ﷺ على مرأى ومسمع من أهل زمانه عليه الصلاة والسلام قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾^(٢) يعني أنهم إذا رأوا معجزة عدوها من باب السحر البين.^(٣)

وقال تبارك اسمه: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾^(٤) يعني بعدما جاءتهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات والتي تثبت بمثلها النبوة^(٥). وعلى ذلك فالقرآن الكريم ليس فيه ما يثبت عدم تأييد النبي ﷺ بالمعجزات - كما زعم نيكولسون -.

ثانياً: ثبوت الانشقاق للقمر في عهده ﷺ:

أما الزعم بأن القمر لم ينشق في عهد النبي ﷺ بل اخترع الصحابة ذلك بعد وفاة المصطفى عليه الصلاة والسلام وأن المراد بقوله تعالى: ﴿أَفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾

(١) إنجيل يوحنا، ١٠/٣٩: ٤١.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٤، ١٥.

(٣) انظر مختصر تفسير البغوي، ج ٢ ص ٧٨٥.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٨٦.

(٥) الكشاف للزمخشري، ج ١ ص ٣٨١.

بأن هذه علامة ستكون يوم القيامة فحسب ، فهو زعم خاطئ لما قاله ابن كثير :
من أن الانشقاق قد كان في زمان رسول الله ﷺ ، كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة
بالأسانيد الصحيحة .. وهذا أمر متفق عليه بين العلماء

إن اشتقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات^(١)
وقد شاهد الناس هذه المعجزة عياناً في أنحاء الجزيرة العربية وخارجها حتى أنه أرخ
بذلك في بعض بلاد الهند وبنى بناء في تلك الليلة.^(٢)

وتأكيداً لما ذكره ابن كثير نذهب إلى كتب الصحاح فنرى أنس بن مالك رضى
الله عنه يخبر : « أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يرهم آية فأراهم انشقاق القمر
شقتين حتى رأوا حراء بينهما».^(٣)

وكذلك عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : « بينما نحن مع رسول الله ﷺ
بمنى إذا انفلق القمر فلتقتين فكانت فلقة وراء الجبل وفلقة دونه. فقال لنا رسول الله ﷺ
اشهدوا».^(٤)

وروي عن ابن عمر عن النبي ﷺ مثل ذلك^(٥) وأيضاً أخبر ابن عباس -رضي
الله عنهما- أن القمر انشق على زمان رسول الله ﷺ.^(٦)

وجاء في كتاب تفسير القرآن عند الترمذي عن محمد بن جبير عن أبيه قال : انشق
القمر على عهد النبي ﷺ حتى صار فرقتين على هذا الجبل وعلى هذا الجبل فقالوا -

(١) تفسير ابن كثير، ج ٤ ص ٢٦٦.

(٢) البداية والنهاية، ج ٣ ص ١١٨ - ١٢٠ بتصرف.

(٣) صحيح البخاري، ج ٧ ص ١٨٣ حديث رقم ٣٨٦٨ في كتاب مناقب الأنصار باب انشقاق القمر. وصحيح

مسلم، ج ٤ ص ٢١٥٩ رقم ٢٨٠٢ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب انشقاق القمر.

(٤) صحيح مسلم، ج ٤ ص ٢١٥٨ حديث رقم ٢٨٠٠.

(٥) نفسه حديث رقم ٢٨٠١.

(٦) نفسه حديث رقم ٢٨٠٣.

أي الكفار - سحرنا محمد ، فقال بعضهم : لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم^(١).

وعلى ضوء هذه الأخبار الصحيحة قال ابن تيمية رحمه الله : ومن آيات رسول الله ﷺ الدالة على نبوته ما هو في العالم العلوي ، كانشقاق القمر وبين أن الله فعله وأخبر به لحكمتين عظيمتين :

أ- كونه من آيات النبوة إجابة لسؤال المشركين أن يروا آية فأراهم انشقاق القمر.

ب- أنه دلالة على جواز انشقاق الفلك ، وأن ذلك دليل على ما أخبرت به الأنبياء من انشقاق السموات ولهذا قال تعالى : ﴿ أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ فذكر انشقاق القمر دون الشمس وسائر الكواكب ؛ لأنه أقرب إلى الأرض من الشمس والنجوم ، ولأنه الجسم المستدير الذي يتضح الانشقاق فيه لكل من يراه ظهوراً لا يتمارى فيه ، وكان النبي ﷺ يقرأ بهذه السورة في المجمع الكبار مثل صلاة الجمعة والعيدين ليسمع الناس ما فيها من آيات النبوة ودلائلها والاعتبار بما فيها ، وكل الناس يقرّ بذلك ولا ينكره ، فعلم أن انشقاق القمر كان معلوماً عند الناس عامة.^(٢)

فإن جاء بعض من المستشرقين الآن ليفتري على ثبوت هذه الآية بالكذب فهذا دليل على عمى قلبه وزيفان عقله خاصة إذا علمنا أن القمر مخلوق لله تعالى يفعل فيه ما يشاء كما يفنيه ويكوره في آخر أمره متى شاء وكيف شاء.

وصحابة رسول الله ﷺ ما اخترعوا قصة الانشقاق بعد النبي ﷺ بل نقلوا إلينا بكل أمانة ما هو ثابت حقاً ومعلوم عند الناس ، ولا ينكر ذلك كما يقول الزجاج إلا كل مبتدع أو مخالف للملة^(٣) . - كما هو حال الحاقدين من المستشرقين والكافرين على مر العصور -

(١) سنن الترمذي ، ج ٥ ص ٣٩٨ باب ٥٤ .

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ج ٤ ص ١٦٢ ابن تيمية .

(٣) انظر : هامش صحيح مسلم ، ج ٤ ص ٢١٥٨ تعليق محمد فؤاد عبد الباقي .

ثالثاً: معجزة الإسراء والمعراج حقيقة لا خيال:

الإسراء هو السير ليلاً

والمعراج هو سلم الصعود إلى السماء

والمقصود هو انتقال النبي ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، ثم الصعود إلى السموات العلا ثم سدرة المنتهى ثم إلى حيث شاء الله كل ذلك في جزء يسير من الليل بوسيلة البراق.^(١)

ولئن ظن المستشرقون أن الإسراء خيال لا حقيقة أو رؤيا منامية لا يقظة فإننا على العكس من ذلك تماماً ، فنحن نرى أن هذه المعجزة بكاملها حقيقة لا خيال ويقظة لا منام ، ومن صدق بها فهو مؤمن حقاً ، ومن كذب بها فقد جانب الصواب وبعد عن جماعة المؤمنين خاصة في الإسراء الذي ثبت بنص واضح بين في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَّا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾^(٢)

فإن جاء مستشرق مثل (شريك) وشكك في موقع الآية في كتاب الله ، وقال لا نعلم أهي من سورة الإسراء أم لا ، فهذا أمر يرجع إلى جهله هو وقلة معارفه ، أما جماعة المسلمين فكل واحد يعلم أن الآية في صدر سورة الإسراء وأن مكانها الذي وضعت فيه مكاناً توقيفياً ، بمعنى أن الرسول ﷺ هو الذي أشار إلى وضعها في موضعها الذي هي فيه الآن ، وأن الصحابة الإجماع علموا ذلك ونقلوه إلينا بالتواتر منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، فمن يأتي ليشكك في ثبوتها وموقعها فهو جاهل وجاهل ولا يصح أن يلزم أحداً بجهله المركب.

(١) انظر في: نور العقيدة ص ١١٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١.

أما المعراج فقد أشارت إليه سورة النجم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَفَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾^(١)

فمطلع سورة الإسراء يقول: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ وصدر سورة النجم يقول: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾. وعلى ذلك فالحكمة من الإسراء والمعراج متمثلة:

في رؤية الآيات الكونية أرضية وسمائية تسليية للرسول ﷺ وتخفيفاً عنه من بعض ما نزل به من مضايقات بعض المشركين له ﷺ، وقد تحققت الحكمة ووقعت المعجزة وصدق بوقوعها كل مؤمن صادق الإيمان، وبعد بسببها كل منافق ادعى الإسلام «لأنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقضية النبوة وتصديق الرسول ﷺ، ومن ثم كان أبو بكر واضحاً في ذلك تماماً حينما حكى أمامه المشركون أن صاحبه ﷺ يقول إنه اسري به الليلة إلى بيت المقدس، ثم عرج به إلى السماء فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق؛ قالوا: أتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة ومن يومها سمى صديقاً^(٢).

ليس كل عجيب ينكر:

وحقاً فإن أبا بكر كان صادقاً، فأمر الإسراء والمعراج بالفعل أمر عجيب ومثير للدهشة عند المشركين قديماً وعند المستشرقين حديثاً. ولكن العجب والدهشة شيء والإنكار شيء آخر فإن كان هؤلاء وأولئك أنكروا كما هو واضح فليس كل عجيب منكر ولا كل مدهش غير واقع.

(١) سورة النجم، الآيات: ١٣-١٨.

(٢) في نور العقيدة ص ١١٣، ١١٤.

فالمعجزات جميعاً مدهشة ومثيرة ولكنها واقعة وثابتة، وغرائب المخترعات كذلك تثير تساؤلات لدى العامة والخاصة ولكن نصدق بها ونحس بها ونلمس آثارها. (١) ولا يستطيع أحد أن ينكرها. فلماذا يساير المستشرقون حديثاً الكافرين قديماً وهم المطلعون والقارئون ولغرائب المخترعات يشاهدون ولا ينكرون اللهم إلا إذا كان الأمر مبيتاً بلبيل؟
يقظة لا مناماً:

وإذا كان (نيكولسون) ومع (شريك) إمعاناً في إنكار الوقوع حقيقة قد ذهبوا إلى أن المعجزة ما هي إلا بمثابة رؤيا منامية فقط أي أنها أضغاث أحلام أو على حد تعبير (شريك) قصتها قد نسجت على منوال قصة ظهور عيسى على جبل تابور وأنه قد ورد فيها أن النبي قد خاطب ربه سبعين ألف مرة مع أنها قد تمت على جناح السرعة.. إلخ.
فإننا نقول:

إن هذا الافتراء لا يمكن أن ينال من ثبوت المعجزات، فقد وردت كما -أشرت- في ثبوتها آيات قرآنية وجاءت أحاديث نبوية صحيحة تؤكد صحتها، وأنها كانت لرسول الله ﷺ بالجسد والروح يقظة لا مناماً.

والعقل يقبل ذلك ولا ينكره، فلو كان مناماً لما كان له كبير اعتبار، فإن في الرؤى عجائب وعجائب، ولما بادرت قريش إلى التكذيب فإن كل إنسان له من الرؤيا ما يحمله على التصديق بمثل ذلك.

وإن التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿بِعَبْدِهِ﴾ في آية الإسراء له دلالة في أن الإسراء كان بالروح والجسد وفي اليقظة، فلفظة العبد تطلق على مجموع الجسد والروح، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ (٢).

(١) المصدر السابق ص ١١٤.

(٢) سورة العلق، الآية: ٩-١٠.

وقوله جل شأنه: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا﴾^(١)، ولا شك أن المراد بالعبد في الموضوعين مجموع الروح والجسد.

الصعود إلى السماء:

ثم صعد الجسد مع الروح إلى السماء ليرى النبي ﷺ بقية الآيات وليلتقى أمر التكليف بأفضل شعيرة في الإسلام وهي الصلاة، وتمت المخاطبة بين الله عز وجل ونبه ثم عاد في نفس الليلة إلى فراشه.

ولئن تعجب (شريك) من قصر الزمن في هذه الرحلة وادعى أن النبي ﷺ خاطب ربه سبعين ألف مرة فإن هذا الرقم لم نسمعه إلا من شريك، ولم تقل به كتب السنن، بل هو من اختراعاته وافتراءاته الكثيرة.

أما الزمن فيجب ألا يقاس بمقاييسنا، ونحن نعلم أن الله عز وجل هو الذي دعا نبيه إلى الرحلة^(٢)، والله سبحانه وهو الفاعل لا يحده زمان ولا مكان؛ لأنه خالق الزمان والمكان. والمحمول في الرحلة وهو النبي الكريم ﷺ لم ينسب القيام بالرحلة إلى نفسه بل إلى الله عز وجل فتلا على الناس: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ وتلا عليهم ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ فهو إذن الذي أسرى به ولم يسر هو بنفسه وهو الذي أرى ولم ير بنفسه.

إذن فالأمر خارج عن إرادته وقوته، وطالما المسألة كذلك ففاعلها لا يصح أن نقيس فعله بأفعالنا ولا الزمان الذي استغرقت فيه الرحلة بزماننا.

فلو حكى أمام شخص مثلاً أن هناك طفلاً رضيعاً لا يتجاوز ثلاثة أشهر قد صعد بنفسه فوق العمارة المكونة من ثلاثة طوابق فإن هذه الحكاية ستصيب الشخص السامع

(١) سورة الجن، الآية: ١٩.

(٢) معجزة القرآن ص ٢٥٢ الشيخ الشعراوي.

بالدهشة والاستغراب، وإن أنكر فهو محق؛ لأن هذا الصعود فوق قدرة الرضيع، لكن إن قيل له: إن والده قد أخذه وصعد به إلى الطابق الأعلى فإنه حينئذ سيتراجع عن إنكاره واستغرابه؛ لأن السامع يعلم مدى قدرة الأب على ذلك.

كذلك لو قيل لنا: إن الله تعالى هو الذي أسرى بمحمد وعرج به إلى السماء يقظة وبروحه وجسده يجب ألا يستغرب هذا ولا ينكر كما أنكر المستشرق شريك ومن سار على نهجه لأن قدرة الله عز وجل فوق كل التوقعات.

النبي ينطق بالدليل:

ولقد أثبت النبي ﷺ بالدليل صحة ذهابه إلى بيت المقدس لكي يصدقوا بعد ذلك بعروجه جسداً وروحاً إلى السماء وتقبل ما فرض عليه.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني من مسراي فسألتنني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها - أي لم اضبطها لانشغالي بأهم منها - فكربت كربة ما كربت مثله قط^(٢) قال: فرفعه الله إلي أنظر إليه. ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به...^(٣)

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار باب حديث الإسراء، ج ٧/ ١٩٦ رقم ٣٨٨٦، ومسلم في صحيحه، ج ١ ص ١٥٦ رقم ١٧٠ كتاب الإيمان.

(٢) الكربة الهم الذي يأخذ بالنفس.

(٣) صحيح مسلم، ج ١ ص ١٥٦، ١٥٧.

وغني عن البيان أن كفار قريش كانوا يعلمون جيداً أن النبي ﷺ لم يري بيت المقدس في حياته ولم يقرأ عنه، لأنه أُمي بعلم الجميع ومع ذلك يصف لهم بيت المقدس قطعة قطعة وسارية سارية، فكان ذلك دليلاً على صدقه وعدم كذبه.

وقد حكى القرآن الكريم عن عجائب تشبه الإسراء والمعراج وإن لم تقاربه فالرياح سخرت لسليمان عليه السلام تحمله إلى آفاق بعيدة عبر عنها القرآن بقوله:

﴿ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ ﴾^(١).

وأخبر أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر، وسواء قلنا إنه سليمان أو عبد صالح أو ملك مقرب. قال تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾^(٢)

ولقد حضر العرش واستقر عند سليمان ولا زمن فلماذا التكذيب برحلة رسول الله ﷺ وإخضاعها للزمن مع العلم بأن الذي أمر بها - كما أشرت آنفاً - هو خالق الإنسان والمكان والزمن جل في علاه.

أما البراق فليس أسطورة:

بل هو الوسيلة التي حملت النبي ﷺ ليلة الإسراء إلى بيت المقدس ومنه إلى السموات العلاء، وليس هو خرافة أو أسطورة كما زعم المستشرقون - آنفاً - ومنهم (كارادا فو) بل هو حقيقة ثابتة، وقد وصف بأنه دابة بيضاء براقه لها المعان^(٣) دون

(١) سورة سبأ، الآية: ١٢.

(٢) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٣) انظر تفسير ابن كثير، ج ٣ ص ٢٦.

البغل وفوق الحمار يضع خطوه عند أقصى طرفه ، وقد نطقت بهذا الوصف أحاديث لا شك في صحتها عند أهل العلم بالحديث بل هي في جملتها متواترة وقطعية الثبوت.^(١)

وعلى ذلك فقد كذب (كارادافو) حينما زعم أن هذا الوصف من أوصاف المفسرين ، ويعد ذلك أخذ يخرج بالفاظ غير لائقة فيما يعتقدده المسلمون تجاه هذه المعجزة. وقد رد الأستاذ أحمد شاعر في تعليقه على أقوال هذا الكاتب في دائرة المعارف قائلاً :

وقد كان لكاتب المقال مندوحة أن يتحاشى الألفاظ الجافة في تعبيره ، إذ يزعم أنه -أي البراق- (في الأساطير للدلالة على أنه حيوان خرافي) وليس في الأساطير ما يثبت عند علماء المسلمين بالتواتر الذي لا شك في صحته واليقين به ، وهذا البراق.. من أمور الغيب التي أخبر بها النبي ﷺ بما وراء هذه المادة التي في متناول الحس البشري ، ثم يورد أمثلة بشرية ممكنة في علم الفلك لم تكن في علم الإنسان من قبل.^(٢)

وفي النهاية أقول : إن هذه المعجزة بما تضمنته من أخبار صادقة هي بمثابة نموذج لحدود المستشرقين لرسالة الرسول ﷺ ونبوته فهم يستكثرون على الرسول ﷺ أن تقع منه أمثال هذه المعجزة والخوارق ويزعمون أنها وغيرها أباطيل ، وكل ما يتعلق بها من الأساطير بينما هم في المقابل يصدقون بخوارق الأنبياء الآخرين ومعجزاتهم كموسى وعيسى عليهما السلام.

وغني عن البيان أن النبي ﷺ له كثير من المعجزات الحسية بجوار معجزة الإسراء مثل : نبع الماء من بين أصابعه ﷺ وحنين الجذع وكلام الضب وتكثير القليل من الطعام إلخ ومع ذلك فإن اعتماده الأكبر كان على أكبر المعجزات وأبقاها إلى يوم الدين -وهو القرآن الكريم. بينما لم يوجد عند الأنبياء السابقين مثل هذه المعجزة الباقية بل كل ما كان كان وانتهى.

(١) راجع صحيح مسلم ، ج ١ ص ١٤٥ كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ رقم ١٦٢ ، ١٦٤ ص ١٥٠ وصحيح البخاري باب المعراج ، ج ٧ ص ٢٠١ ، ٢٠٢

(٢) انظر دائرة المعارف ، ج ٣ ص ٤٥٨ مادة براق والرسول ﷺ في كتابات المستشرقين ص ١١٧ نذير حمدان.

ولولا أن الرسول ﷺ أخبرنا بما كان عندهم ما صدقنا أهل الكتاب عن شيء
لثبوت تحريفهم وكثرة أكاذيبهم.

المبحث الرابع

التحامل الاستشراقي على شخص صاحب الرسالة

لم يكتف المستشرقون المتعصبون بما سبق ذكره من افتراءات حول ثبوت الرسالة
والوحي والكتاب والمعجزة في الإسلام، بل طفقوا بالتحامل والتطاول وإيراد الشبهات
على شخص صاحب الرسالة ﷺ على اعتبار أن كل شبهة ترد على شخص الرسول
عليه الصلاة والسلام هي شبهة على رسالته التي حملها ودينه الذي جاء به للعالمين،
كما أن إثارة هذه الشبهات جزء من مخطط كبير عندهم يهدف إلى عزل الإسلام ورسوله
عن حياة المسلمين بخاصة والناس بعامة؛ ليحل بدلاً عن ذلك دين الغرب وإباحيته
وشخصياته ذات الشهرة بينهم.

وبإيجاز سنذكر بعضاً من هذه الشبهات والافتراءات التي أثارها هؤلاء على
شخص هذا النبي الكريم ﷺ ونتبعها بالنقد والرد -

وهاك أبرز ما أثاروه:

١- التشكيك في اسمه ﷺ والرد على ذلك

زعم عدد من المستشرقين أن نبينا محمداً ﷺ لم يكن اسمه محمداً بل كانت له
أسماء أخرى ومن هؤلاء:

أ- (دور منغم) القائل: «إننا نذكر أن الاسم الأصلي للنبي هو (قثم) ثم تم إجراء
تعديل على هذا الاسم بعد ولادته بوقت قصير أو حين بعثته إلى (محمد) الذي
هو لقب نبوي ليس أكثر.»^(١)

(١) نقلاً عن كتاب: الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين ص ١٠٥.

ب- وأيضاً (هوار) في كتابه تاريخ العرب إذ نراه يسلم بذلك ويزعم بأن محمداً لم يدع محمداً قط، وأن حقيقة اسمه ستظل لغزاً من الألغاز التي لا حل لها، والحجة عنده «أن كلمة محمد نعت ذو معنى خاص لذلك فهو بالتأكيد لقب ليس إلا»^(١)

ج- ويقول (بودلي)^(٢) في ترجمته لاسم محمد ﷺ والمحمدية أصبحت لفظة محمد (Namme) ثم تستعمل بمعنى أصنام، واشتقت كلمة (Mahomerie) ثم كلمة (Mumery) بمعنى مجنون من نفس المصدر وعلى عبادة الأوثان (المحمدية Mametry)

د- ويقول (جون سلدن) معقياً: فصارت كلمة محمد والمحمدية أسماء بغيضة في حين أن الترك (يقصد المسلمين) يجرمون الأوثان في دياناتهم.^(٣)

الرد

وهكذا وصلت كراهية هؤلاء المستشرقين وبغضهم لرسول الله ﷺ إلى أبعد مدى لدرجة أنهم يريدون تجريده من اسمه زاعمين أنه اسم بغيض أو اسم صنم أو مجنون أو قثم إلخ، وإن كان المسلمون يطلقون عليه اسم محمد فهو مجرد لقب نبوي فقط ومحمد فهو ليس هو محمد.

وهذا تخبط واضح في اسم الرسول ﷺ بدون سند ولا برهان، ولا أدري على أي كتاب اعتمد هؤلاء المتخبطون أو من أي مصدر نقلوا إلينا حقيقة ما يذكرون. فكل كتب التاريخ في أركان الأرض الأربعة لم تسطر يوماً أن محمداً ﷺ الذي جاء ليظهر الأرض من الأصنام ويبعد الخلائق عن الخلاعة والمجون قد سمي نفسه أو سماه أصحابه بصنم أو مجنون أو قثم كما يزعم المفترون.

(١) نقلاً عن كتاب أوربا والإسلام ص ١٠٣.

(٢) علامات محمد ما هي وما قيمتها، ص ١٧١، نقلاً عن كتاب الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين ص ١٦٥.

(٣) المصدر السابق ص ١٦٥، ١٦٦.

بل هو محمد رسول الله ﷺ عرفه أصحابه بذلك ، وعرفته الدنيا بذلك ، وعرفه
أوثق كتاب وأصححه في كل كتب الدنيا بذلك وهو القرآن الكريم

أ- فقال: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ ﴾^(١)

ب- وقال: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾^(٢)

ج- وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾^(٣) وجاءت سورة في
القرآن الكريم سميت باسم محمد

د- وذكره عيسى عليه السلام بأنه أحمد ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾^(٤)
أي كثير الحمد أو أحمد الخلق إلى الله عز وجل.

هـ- وذكر في الكتاب المقدس - عند النصراري - بأنه الفارقليط أي الحماد أو الحامد أو
المعز. كما جاء في إنجيل يوحنا^(٥) ومعناه كثير الحمد وهو يلتقي مع معنى محمد
وأحمد.

و- كذلك جاء اسم محمد ﷺ في التوراة على أنه النبي الرسول كما ذكر ذلك كعب
الأخبار وأكد ابن القيم وحققه قائلًا: إن تسميته بمحمد سبقت تسميته بأحمد
لأنه سمي محمدًا في التوراة وسمي بأحمد في الإنجيل.^(٦)

(١) سورة الفتح، من الآية: ٢٩.

(٢) سورة الأحزاب، من الآية: ٤٠.

(٣) سورة آل عمران، من الآية: ١٤٤.

(٤) سورة الصف، من الآية: ٦.

(٥) إنجيل يوحنا إصحاح ١٤/٦ - ٣٦ وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

(٦) انظر جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ج ١ ص ١٤٠٥ دار الكتب العلمية بيروت، وهداية
الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ص ١١٥-١٢١، مكتبة السوادي - جدة.

ز- كما أخبر ﷺ بنفسه عن أسمائه حيث قال عليه الصلاة والسلام «إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد»^(١) - وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى من غير شك»-

وقد ردد علماء الأمة عندنا هذه الأسماء وعلقوا عليها بأقوالهم: «والذي يظهر أنه أراد أن لي خمسة أسماء أختص بها ولم يسم بها أحد قبلي، أو خمسة أسماء معظمة أو مشهورة في الأمم الماضية لا أنه أراد الحصر فيها».

وقال القاضي عياض: حمى الله هذه الأسماء أن يسمى بها أحد قبله وإنما تسمى بعض العرب محمداً قرب ميلاده لما سمعوا من الكهان والأخبار أن نبياً سيبعث في ذلك الزمان يسمى محمداً فرجوا أن يكونوا هم فسموا أبناءهم بذلك.^(٢)

وبهذا يتبين أماننا أن اسم محمد ﷺ لم يكن من الأسماء البغيضة عند العرب أو عند المسلمين كما يقول (جون سلدن) بل هو من الأسماء المرجوة والمحبوذة عند الناس قديماً وحديثاً، وإن هذا الاسم هو الذي عرف به النبي ﷺ منذ ولادته وعرفته به الأديان السابقة والقرآن الكريم ومعناه واضح وبين وليس لغزاً من الألغاز كما يدعي (هوار) وغيره، فهو دال على معناه الذي هو الحمد والثناء على خالق الأرض والسماء وإجلاله وتعظيمه جل في علاه، ولم يدل على صنم أو فاحشة كما يزعم هؤلاء الجاهلون.

وكذلك اسم أحمد فهو أفعل تفضيل يدل على أن حمده ﷺ لربه أفضل من حمد الحامدين غيره فهو أحمد الحامدين^(٣).

(١) أخرجه البخاري، ج ٦ ص ٦٤١ حديث رقم ٣٥٣٢ باب أسماء النبي ﷺ، ومسلم، ج ٤ ص ١٨٢٨ رقم

٢٣٤٥ باب ما جاء في أسماء النبي ﷺ، والدارمي في سنته، ج ٢ ص ٤٠٩ رقم ٢٧٧٥.

(٢) فتح الباري، ج ٦ ص ٦٤٤.

(٣) انظر فتح الباري، ج ٦ ص ٦٤١.

ثم إننا نذكر المستشرقين الحاقدين بأنكم مهما شككتهم في اسم محمد ﷺ فإن المسلمين له من العاشقين ؛ لأنهم يرون أن هذا الاسم بالذات له قبول خاص وذوق رفيع في دنيا الأسماء ، فإطلاقه يتناسب مع كل أطوار سن الإنسان.

فنرى الطفل الصغير يتسمى به وهو عليه لائق وجميل ، والشاب اليافع يقبله ويرتضيه ؛ لأنه يرى لحروفه جرس خاص ورنين ، والشيخ الكبير لا يرفضه ؛ لأنه يضيف لشيخوخته مهابة ووقاراً ، إذاً فهو مناسب للشخص كما قلت في كل أطوار حياته ، بينما هناك أسماء قد تكون مقبولة في طور الطفولة عند الإنسان لكنه قد يستحي من إطلاقها عليه في طوره الثاني أو الأخير ، بينما اسم محمد قد يطلق على الطفل محمد ، والشاب محمد ، والحاج محمد ، ولا غبار عليه في أي طور من الأطوار ، لأنه اسم اختاره لنبيه ﷺ رب السماء جل في علاه ونحن له من المحبين وإن كره المستشرقون.

٢- دعوى عدم أمية الرسول ﷺ والرد عليها :

جاء في دائرة المعارف الإسلامية مقال لبارية (Paret.R) يقول فيه :

إن (أمي) لقب محمد في القرآن ، وهو لقب يرجع في بعض الوجوه إلى كلمة أمة^(١) وهي دخيلة على العربية وليست أصيلة إذ كانت موجودة في العبرية والآرامية من قبل محمد أخذها واستعملها وصارت منذ ذلك الحين لفظاً إسلامياً أصيلاً^(٢) ومعناها قبل الهجرة يخالف معناها بعد الهجرة ، فهي عند اليهود كانت تطلق على الوثنيين ، وإذا كان لفظ أمي معناه الذي لا يقرأ ولا يكتب فإن هناك عوامل لغوية تجعل من الصعب تقبل ذلك. ثم يختم بقوله :

وقد استدل قوم بإطلاق لفظ الأمي على محمد بأنه لا يقرأ ولا يكتب ، والحقيقة أن كلمة الأمي لا علاقة لها بهذه المسألة^(٣). ثم يؤيد ذلك المستشرق (نيكولسن)

(١) انظر: دائرة المعارف الإسلامية، ص ٦٤٣ ج ٢.

(٢) المصدر السابق ص ٦٣٠ ، ٦٣١. (٣) المصدر نفسه ص ٦٤٤ ، ٦٤٥ ج ٢.

ويقول إن أمية الرسول ﷺ لا تعني جهه بالقراءة والكتابة بل تعني أنه لم يطلع على الكتب القديمة، ومحمد كان قارئاً كاتباً - لأنه كان تاجراً، والتاجر لا بد له أن يراجع حساباته ويضبطها ولا يتأتى له ذلك إلا بالقراءة والكتابة، وقد خاطبه الله تعالى باقراً^(١).

ومن هذا العرض يتبين أن المستشرقين يحاولون إثبات أن كلمة أمي ليست عربية الأصل وأنها قد أخذت عن العبرية، وكانت تطلق عند اليهود على الوثنيين لا على الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، وأن محمداً كان قارئاً وكاتباً والحجة عندهم أنه كان تاجراً والتاجر لا بد أن يكون قارئاً والله تعالى قال له اقرأ.

وللرد على هؤلاء أقول:

غني عن البيان أن هذه المزاعم لا تنتمي إلى الحق من قريب أو بعيد لما يلي:

أولاً: أن كلمة أمي ليست دخيلة على اللغة العربية بل هي مسجلة في معاجم اللغة العربية ومعروفة بأن الأمي في لغة العرب هو الذي لا يقرأ ولا يكتب نسبة إلى الأم، فهو على حالته التي ولدته بها أمه^(٢)، أو أن نسبه إلى أمه في عدم الكتابة؛ لأن نساء العرب لا تقرأ ولا تكتب في الغالب.^(٣)

فإذا كان المستشرقون قد جهلوا ذلك وظنوا أن الكلمة دخيلة على العربية وأنها لا تدل على عدم الكتابة والقراءة كما ذكر (باريه) في مقاله فهذا تقصير منه، وعدم معرفته بأصول العربية لا يؤثر في حقائق اللغة والعلم؛ لأن المعنى معروف في لغة العرب وثابت.

ثانياً: أن هذا الوصف المعروف بمعناه في لغة العرب قد نسبه القرآن الكريم حقاً وصدقاً لرسول الله محمد ﷺ في آيتين متتاليتين في سورة الأعراف الأولى تقول: ﴿الَّذِينَ

(١) المستشرق نيكولسون ص ٢٧١.

(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور، ج ١٢ ص ٣٤ والمعجم الوسيط، ج ١ ص ٢٧.

(٣) جامع البيان للطبري، ج ٢ ص ٢٥٧، ٢٥٩.

يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ ﴿۱﴾ والثانية تقول: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ ﴿۱﴾

وكلمة أميٍّ سياقها في الآيتين يدل على أن المراد عدم معرفته بالقراءة والكتابة
وقد وضحت ذلك سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ
مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخِطُّهُمْ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿۲﴾ والسورتان
تكذبان ما قاله المستشرقون من أن كلمة أميٍّ نقلها النبي ﷺ عن العبرية وأن
اليهود كانوا يطلقونها على الوثنيين فقط.

ذلك لأن سورة الأعراف هي أول السور الطوال نزولاً بمكة وكذلك سورة
العنكبوت، ومعلوم أن النبي ﷺ لم يكن له علاقة باليهود عندما كان بمكة
فكيف يأخذ منهم وهو غير متصل، بهم ثم كيف ينقل عنهم ويكتب وكل أهل
مكة يعرفون أنه أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب. إن هذا لشيء عجاب؟!

ثالثاً: إن آية سورة الأعراف تشير بلا خفاء حتى وإن غلط في ذلك المستشرقون أن
أهل الكتاب يعرفون جيداً صفات النبي ﷺ في كتبهم كما يعرفون أبناءهم ومن
هذه الصفات أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك سيُعلم، المتعلمين وسيلقى
إليه كتاب يعجز عن الإتيان بمثله أو حتى بآية منه الجن والإنس ويحفظه حفظاً
ويتلوه على الأسماع، ولا يستطيع أن يكتبه، فإن كتب خلفه كاتب وردد بعد
ذلك ما كتب عنه لا يخطئ في كلمة واحدة ولا حتى في حرف واحد مما تلاه،
وهذا الأمر لا يستطيع أن يؤديه أبلغ البلغاء في دنيا الناس، ومع ذلك يؤديه هذا
النبي عليه من الله الصلاة والسلام مما يدل على إعجازه.

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٧، ١٥٨.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

وهاك سفر التثنية يدل على ثبوت أمية الرسول ﷺ وينقل قول الرب لموسى عليه السلام «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به»^(١).

ومعلوم أن المثلية بين موسى ومحمد عليهما السلام متحققة في أمور كثيرة أبرزها الميلاد من أب وأم وهو لا ينطبق على عيسى عليه السلام بل ينطبق على محمد ﷺ، كما أن قوله من إخوتهم دليل على أنه من نسل إسماعيل لا من نسل إسحاق وهذا ينطبق على محمد ﷺ لا عيسى عليه السلام، وقوله: وأجعل كلامي في فمه أي أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب بل يسمع ويسمع فقط.

وفي إنجيل يوحنا يحكي المسيح عليه السلام لتلاميذه قائلاً: لا أتكلم معكم كثيراً؛ لأن رئيس العالم يأتي..^(٢) وهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمر آتية^(٣).

وقد ثبت - كما أشرت من قبل - أن رئيس العالم هو المبعوث رحمة للعالمين ﷺ ومعنى كل ما يسمع يتكلم به أي أمي تلقيه من ربه بالسماع لا بالكتابة كما وضع النص السابق، (وأجعل كلامي في فمه).

وعلى ذلك فإن التوراة والإنجيل قد أثبتا أمية رسول الله ﷺ وإن غفل عن ذلك الغافلون وكذب به المفترون.

رابعاً: أما الزعم بأن الدليل على عدم أمية الرسول ﷺ أنه كان تاجراً وأن الله تعالى قال له اقرأ فهو زعم باطل، لأنه لا يلزم أن يكون التاجر قارئاً و كاتباً ونحن نرى في واقعنا كثيراً من التجار ورجال الأعمال لا يعرفون أن يسكوا بقلم أو يتصفحوا

(١) سفر التثنية إصحاح ١٨/١٨

(٢) إنجيل يوحنا إصحاح ٣٠/١٤

(٣) إنجيل يوحنا إصحاح ١٣/١٦

جريدة ومع ذلك فهم من أنجح الناس في تجارتهم وأعمالهم فالواقع يكذب ما ذهب إليه المستشرقون.

أما حجتهم بأن الله تعالى خاطبه ﷺ قائلاً له اقرأ ، فقد أثبتت كتب السنن الصحيحة أن النبي ﷺ لما أخبره جبريل عليه السلام بأمره بالقراءة قال : ما أنا بقارئ ثلاث مرات ، وفي كل مرة يضمه حتى يبلغ منه الجهد ثم قال له : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ﴾^(١).

وعليه فامية النبي ﷺ ثابتة بإقراره هو عليه الصلاة والسلام ، وثابتة بخبر القرآن الكريم وبالسنة المطهرة وباعتراف كتب أهل الكتاب ورسلمهم ، ولم يبق بعد ذلك مزعم لزاعم.

٣- دعوى عدم زهد النبي ﷺ والرد عليها :

ومن غرائب ما افتراه المستشرقون الزعم بأن النبي ﷺ كان من الطامعين في الدنيا العاشقين لها ، فملك عليه قلبه واستحوذت على عقله وفكره وطلب الملك فيها ، فخالف بذلك ما كان عليه الأنبياء ، ذكر ذلك (جولد تسيهر) حين قال :

أ - «إن محمداً ﷺ تحول من الزهد في بداية دعوته بمكة إلى الطمع في المدينة وترك مبدأ التأسى بالأنبياء»^(٢).

ب - وبهذا القول تأثر (نيكولسون) فكتب : إن النبي ﷺ بعد هجرته وانتصاراته تحول إلى سلطان أرض وحول فعالياته الدينية إلى مسالك أرضية وجمع لنفسه كل السلطات فأصبح أميراً ومشروعاً وسياسياً ودبلوماسياً^(٣).

(١) راجع صحيح البخاري ، ج ١ بدء الوحي ، تفسير ابن كثير ، ج ٤ ص ٥٤٣ ، والآيتان من سورة العلق ١-٢.

(٢) العقيد والشريعة في الإسلام ص ١٨ ، ١٩.

(٣) Nichololson. Aliterary History Of Arabsp. A.R. ١٧٥. نقلاً عن المستشرق نيكولسون ومفترياته

وللرد على هؤلاء أقول :

لم يثبت في أي كتاب معتبر أن النبي الأكرم عليه من الله أفضل صلاة وأتم تسليم ينطبق عليه هذا الوصف الذي نسبه إليه المستشرقون ، وأنه تحول من الزهد إلى الطمع ، ومن النبوة إلى الملك ، وأنه خالف مسلك الأنبياء. كل ذلك لم يكن. بل الثابت الموثق والمنقول إلينا عن سيرة هذا النبي الكريم بالتواتر أنه كان عليه الصلاة والسلام من أزهّد الناس وأحسنهم خلقاً وعلى نهج الأنبياء يسير ، سواء أكان ذلك قبل الهجرة أم بعدها ، وليسمع المتقولون ما كان يقوله عليه الصلاة والسلام فهو يقول :

أ - فيما رواه أبو هريرة عنه رضي الله عنه : «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(١). فهي ليست إذاً مما يجب التمسك به.

ب - وكان عليه الصلاة والسلام يقرأ ذات يوم : ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ويقول : «يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفريت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت»^(٢).

ج - و (جولد تسيهر) الذي يظن أن النبي صلى الله عليه وآله ترك الزهد الذي كان عليه في مكة وطمع في الدنيا وهو بالمدينة أسوق ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قال «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام بُرُّ ثلاث ليالٍ تباعاً حتى قبض» وفي رواية «حتى مضى لسبيله»^(٣).

وفي حديث آخر عن عروة عن عائشة أنها كانت تقول : والله يا ابن أختي إن كنا لنتنظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في آيات رسول الله نار. قال : قلت : يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت : الأسودان

(١) صحيح مسلم ، ج ٤ حديث رقم ٢٩٥٦ كتاب الزهد والرقائق ، ص ٢٢٧٢.

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٧٣ حديث رقم ٢٩٥٨ نفس الكتاب.

(٣) السابق ، ص ٢٢٨١ حديث رقم ٢٩٧٠.

التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصال كانت لهم منائح^(١) فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيناه^(٢).

هذه هي حالة رسول الله ﷺ وحالة أهله في المدينة تحكيها عائشة رضي الله عنها بلسانها، ولا تجد غضاضة في نشر ذلك؛ لأن بيت النبوة ليس بيت دنيا ولا بدخ ولا ترف، ومع ذلك يجلس (جولد تسيهر) على أريكته ويأكل الطير الشهي واللحم الطري ويقول: رسولكم لم يكن إلا عاشقاً للدنيا مترفاً فيها. خيبك الله من دعي!

أما نيكولسون الذي يتهم النبي ﷺ بأنه بعد الهجرة طمع في الدنيا وتحول إلى سلطان جبار يملك كل السلطات ومن ثم ترك النبوة وطلب الملك.

فأخبره: إن كان جاهلاً - وهو كذلك - أن القارئ لمسيرة الدعوة الإسلامية لم ير النبي ﷺ قد بدأ دعوته إلا باللين، ويوم أن قاتل كان قتاله للكفار دفاعاً عن الإسلام ويأمر ممن أرسله، ومعلوم أن قتال الكفار المتهجمين على دين الله كان موجوداً عند الأنبياء السابقين، وقد سجل ذلك سفر التثنية «وإذا دنوت من قرية لتقاتلها ادعهم أولاً إلى الصلح فإذا قبلت وفتحت لك الأبواب فكل الشعب الذي بها لك عبداً يعطونك الجزية»^(٣)، وقد فعل موسى ذلك ولم يقل أحد عنه إنه طلب الملك. وهذا هو ما فعله رسول الله محمد ﷺ ولكنه لم يجعل من يكون عليه جزية عبداً بل له ما لنا وعليه ما علينا^(٤).

إذاً ما فعله النبي لم يكن بدعاً في دنيا القتال وإنما كان موجوداً ومشروعاً من قبل. فلو كان القتال الذي قام به المصطفى عليه الصلاة والسلام من أجل الدنيا ومطامعها وملكها لوقع هذا الاتهام على الأنبياء السابقين وهم جميعاً عنه مبعدون.

(١) الشاة أو الناقة.

(٢) السابق، ص ٢٢٨٣ حديث رقم ٢٩٧٢.

(٣) التثنية ١٠/٢٠-١٦.

(٤) ومعلوم أن موسى عليه السلام لم يخالف منهج الله وشرعه إلا أننا نعلم أن في السفر تحريفاً.

ثم أقول (لنيكولسن): كيف يكون قتال محمد للمشركين من أجل الدنيا والطمع فيها وهاهو سعد بن أبي وقاص يقول: «إني لأول رجل من العرب رمى بسهم في سبيل الله ولقد كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام نأكله إلا ورق الحبله وهذا السمُّ حتى إن أحدنا ليضع كما تضع الشاة»^(١).

وعلى ذلك يؤكد خالد بن غزوان رضي الله عنه قائلاً «لقد رأيتني سبع سبعة مع رسول الله ﷺ ما طعامنا إلا ورق الحبله حتى قزحت أشداقنا»^(٢).

وورق الحبله والسمُّ نوعان من شجر البادية.

هذا هو تموين الجيش الذي كان يقوده محمد ﷺ الذي يقال عنه طامعاً ومترفاً وعاشقاً للدنيا - لم يكن تموينه وجيشه ﷺ من الأرز الفاخر أو السمك الطري أو الدجاج الشهي، بل كان من أوراق الأشجار التي تنبت في الصحراء بين الأحجار، ومع ذلك تقبله هذا المتهم من قبل المستشرقين وارتضاه أصحابه الأطهار، وجاهدوا حتى رفعوا كلمة الله في العالمين ومن قبل عرفنا تموين بيته وأهله وأسرتة؛ لذلك لم يتقبل مستشرق منصف مثل توماس كاريل في كتابه «الأبطال» لم يتقبل اتهام الحاقدين من المستشرقين لخير الخلق أجمعين بأنه لم يكن من الزاهدين فكتب وقال: «لقد كان محمد زاهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله. وكان طعامه عادة الخبز والماء، وربما تابعت الشهور ولم توقد بداره نار.. وكان يصلح ويرقع ثوبه بيده.. فحبذا محمد من رجل خشن الطعام مجتهد في طاعة الله قائم النهار ساهر الليل دائماً في نشر دين الله»^(٣).

ويكفينا هذا القول المنصف في قطع ألسنة المتهمين لأجل وأعظم شخصية عرفتها الدنيا عليه من الله أفضل صلاة وأتم تسليم.

(١) صحيح مسلم، ج ٤ ص ٢٢٧٧، رقم ٢٩٦٦ كتاب الزهد والرقائق.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٧٩، رقم ٢٩٦٧.

(٣) نقلاً عن كتاب زاهر الألمي مع المفسرين والمستشرقين، ص ٨٥.

٤- الزعم بأن النبي ﷺ رجل شهواني :

ومما يتعب بال الحاقدين من المستشرقين ويكدر عليهم صفو تفكيرهم هو ما يسمعونه أو يقرؤونه عن سجايا المصطفى ﷺ ؛ لذلك أرادوا تعكير صفو الفكر الإنساني بعامة والإسلامي بخاصة تجاه هذه الشخصية الجليلة ، فبحثوا ونقبوا وكتبوا وأكدوا «أن هذا الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن على خلق عال بل كان رجلاً شهوانياً تذوب شخصيته في مخادع النساء ؛ ولهذا أكثر من الزوجات وحدد لأتمه أربعاً كحد أعلى بينما فتح الأبواب لنفسه وتزوج كثيرات ، بل عمل على فسخ زوجة ابنه ومولاه وتزوجها لأنها كانت بيضاء وجميلة»^(١).

وهاك ما يقوله (إميل منعم) في كتابه محمد «شعر محمد بالعقد الأخير من عمره بميل كبير إلى النساء»^(٢).

أما (غوستاف لوبون) فيقول : «إن ضعف محمد الوحيد هو حبه الطارئ للنساء... لذلك أطلق العنان لهذا الحب حتى إنه رأى اتفاقاً زوجة ابنه وهي عارية فوق في قلبه منها شيء فسرحتها بعلمها ليتزوجها محمد...»^(٣).

وأرد على هؤلاء بإيجاز وأقول :

إن هذا الغمز الاستشراقي لشخصية الرسول ﷺ أمر غير مقبول لا منطقياً ولا عقلياً لما يلي :

أولاً : أنتم تؤاخذون الرسول ﷺ لأنه عدد نساءه ، وتقولون إنه كان للنساء عاشقاً ، وحدد لأتمه أربعاً وفي هذا ظلم وجور من وجهتكم.

(١) المصدر نفسه ص ٨٤.

(٢) حياة محمد ص ٢٩٩ ، المصدر السابق ص ٨٤.

(٣) حضارة العرب ص ١١٢ ترجمة عادل زعيتر.

وسؤالنا: هل أنتم تؤمنون به رسولاً أم لا؟

المعلوم أنكم هاجمتم رسالته فأنتم به من الكافرين ، فلماذا إذاً تلومونه على فعل خاص به وهو عندكم بشر لا رسول ، ألا تؤكدون في بلادكم على ما يسمى بالحرية الشخصية وهنا نراكم تهاجمون شخصاً لا رسولاً عندكم وتتعدون على حرته ، أليس هذا ظلماً وجوراً منكم وتعدياً على الحريات الإنسانية؟!

أما نحن فنرى أنه نبي ورسول ، وأن فعله في التعدد لم يكن بدعاً لا في شرعه ولا بين قومه فشرعه هو شرع الأنبياء قبله ، والأنبياء قبله كانوا يتزوجون ويعددون ، وقد ثبت ذلك عن سليمان ويعقوب وغيرهما^(١) في الكتاب المقدس عندكم ولم ينكر أحد على هؤلاء ، فلماذا الإنكار على النبي محمد ﷺ ؟ أما قومه عليه الصلاة والسلام فقد جاءهم وهم يعددون وكان هذا نظاماً قائماً لكل الناس وقت نبوته عليه الصلاة والسلام. وعلى ذلك فلا غرابة في تعدده لأزواجه عليه الصلاة والسلام.

ثانياً: متى عدد الرسول ﷺ ؟ ولماذا عدد؟

إن سيرته ﷺ تثبت أنه تزوج وهو في الخامسة والعشرين من خديجة رضي الله عنها وهي في الأربعين من عمرها «وقد كان ذلك من فضل الله تعالى لأن رجاحة عقلها كانت خيراً على الرسول ﷺ قبل الرسالة وعند مجيئها ، إذ ثبتته وذكرته بالخير لما دخل عليها مرتجفاً قائلاً زملوني.. إلخ». وعاش معها النبي ﷺ وحدها دون أن يعدد أزواجاً حتى توفيت وهي في الخامسة والستين - رضي الله عنها - وهو عليه الصلاة والسلام فوق الخمسين ولم يثبت التاريخ أن أحداً من خصومه أثناء هذه الفترة جرؤ في أن ينسب إليه دنساً أو يتهمه بريبه.. بل كان ﷺ وهو في هذه الفترة الخصبة الرحبة في عمر الإنسان يتألق في جبينه رونق العفاف

(١) راجع سفر التكوين الإصحاح ٣٥ ، ٣٦.

والشرف حيث سار. ولو أراد الزواج بأكثر من واحدة آنذاك ما عاب عليه أحد؛ لأنه كان مألوفاً ولكنه لم يفعل. ولما توفيت خديجة رضي الله عنها وأراد أن يتزوج لم يبحث عن جمال أو مال بل أراد أن يربط صلته بوزيره أبي بكر وعمر فاختر عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها على صغر سنها واختار حفصه بنت عمر رضي الله عنها على قلة وسامتها ثم اختار أم سلمه رضي الله عنها أرملة قائده الذي استشهد في سبيل الله، وكانت معه سودة وهي امرأة نزلت عن حظها من الرجال لكبرها وعزوفها^(١).

وكذلك بقية زوجاته لكل واحدة منهن لزواجهن منه سبب وكل ذلك كان بعد الخمسين من العمر. ومعلوم أن الشخص بعد سن الخمسين قد لا تكون له رغبة في النساء، وهذا لا يعني أن النبي ﷺ قد ينطبق عليه في هذه الفترة ما ينطبق على غيره من الرجال فإن رصيده ﷺ من القوة الجسدية بجوار القوة الروحية والنفسية كبير إلا أنني أريد أن أقول إنه لو كان عليه الصلاة والسلام من أصحاب الشهوة كما يزعم الساقطون من المستشرقين لبحث عن النساء قبل الخمسين بكثير، لكنه لم يفعل ذلك؛ لأن المتعة بالنساء ليست غايته كما تصورها هؤلاء الشهبانيون.

ثالثاً: ثم إن هذا التعدد الذي وقع من النبي ﷺ كان مباحاً - كما أشرت - له ولأصحابه عليه الصلاة والسلام ورضي الله عنهم لدرجة أن الواحد قد يتزوج ما يشاء ولا مانع يمنعه، فلما جاء التشريع والتنظيم من عند الله عز وجل طلب من النبي ﷺ ألا يتزوج مرة أخرى ويمسك ما عنده من النساء. قال عز وجل: ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن﴾^(٢).

(١) انظر: السيرة لمحمد الغزالي، ص ٤٧١، ٤٧٢، ومع المفسرين من المستشرقين لزاهر الألمي، ص ٨٦، ٨٧.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٥٢.

أما بقية الصحابة والأمة فقد تم تحديد العدد فلا يمكك الواحد أكثر من أربع نسوة إن استطاع أن يعدل وإلا فواحدة قال تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعًا فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (١).

وهنا نقول للحاقدين المفترين من المستشرقين هل هذا الأمر الذي بلغه النبي إلى أمته فيه تضيق على الرسول وتوسعة على غيره أم تضيق على غيره وتوسعه عليه ﷺ؟ إنكم تقولون إنه - عليه الصلاة والسلام - ضيق على أتباعه وجعل الحد الأعلى أربع نسوة، أما هو فله ما يشاء من النسوة.

ونرى غير ما ترون إذا التضيق هنا كان على الرسول عليه الصلاة والسلام لا على أتباعه فهو يقف عند المحدود أي ما معه من النساء وليس له عدد بعدهن، فلو أن نساءه جميعاً متن في عهده ﷺ ما استطاع أن يتزوج واحدة بعدهن؛ لأن الله تعالى قال له: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءَ مِنْ بَعْدُ﴾.

أما أصحابه وأتباعه في كل زمان ومكان فالواحد منهم يستطيع أن يطلق ثم يتزوج ويدور هذا الأمر إلى أربعين امرأة إن شاء فتأشيرته مفتوحة - إن صح التعبير -، لكنه إن أراد الإمساك فله أربع فقط، وإن طلق فيأتي بأخرى ويدور معه العدد، لكن الرسول ﷺ لا يدور معه العدد بل يقف عند المحدود له. فلو لم يكن النبي ﷺ أميناً وكان صاحب شهوة ما ضيق على نفسه ولا وقف عند من معه من النسوة، ولا بلغ أمته بذلك، لكنه بلغ واستجاب أتباعه، فكان الذي عنده تسع يطلق خمساً ويبقي أربعاً. والخمس من حقهن أن يتزوجن بأخرين، أما هو عليه الصلاة والسلام فلا يستطيع أن يطلق واحدة؛ لأنه كان عنده آنذاك تسع فلو طلق خمساً ما تزوجن أحداً بعده.. لماذا؟

(١) سورة النساء، الآية: ٣.

لأنهن أمهات المؤمنين ولا يصح في شريعة الإسلام أن يتزوج المسلم أمه.. لهذا أبقى عليهن الرسول ﷺ ولم يطلقهن^(١)، وما كان ذلك إلا تنفيذاً لما شرعه الله عز وجل، ولا يمكن أن تكون هذه السرعة في التنفيذ لأوامر الحق جل وعلا من أعمال الشهوانيين الساقطين كما يزعم الساقطون من المستشرقين.

رابعاً : أما الادعاء بأنه ﷺ كان خاضعاً لشهوته ؛ ولذا طلق زوجة ابنه لإعجابه بجمالها بعد أن رآها عارية -على حسب تعبير غوستاف لوبون- فهو ادعاء عارٍ عن الحقيقة، والنبي ﷺ كما هو ثابت لم ير عورة في حياته، بل كانت عائشة رضي الله عنها وهي زوجته تقول كان النبي ﷺ لا يرى مني ولا أرى منه، وكان حياؤه -عليه الصلاة والسلام فوق الوصف، ومعلوم أن الحياء من الإيمان، ولما كان الذي علم الناس أصول الإيمان فحري أن يكون أشد الناس حياءً عليه الصلاة والسلام، ثم من قال بأن النبي ﷺ له ابن من صلبه وقد تزوج هذا الابن ثم طلق وتزوج النبي زوجته؟.

لم يعلم ذلك عن النبي عليه الصلاة والسلام مطلقاً لكن المسألة متعلقة بزید بن حارثة رضي الله عنه، وكان زيد رضي الله عنه عبداً وهبته خديجة لرسول الله عليه الصلاة والسلام وصار مولاه، جاءه أبوه وقد عرف أنه في مكة فأراد أن يأخذه من رسول الله ﷺ فخيره الرسول عليه الصلاة والسلام بين أن يذهب إلى أبيه أو يبقى مع الرسول ﷺ، لكن زيدا من شدة حبه للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام لم يقبل أن يختار أحداً على الرسول محمد ﷺ وبقي معه ولم يذهب مع أبيه، فكان من كرم رسول الله عليه من الله أفضل صلاة، وسلام أن كافأه فدعاه زيدا بن محمد بدلاً من زيد بن

(١) انظر شبهات وابطال خصوم الإسلام ص ٤٨، ٤٩ بتصرف، والمدلول الرمزي لشخصيات أولاد حارتنا لنجيب محفوظ وعلاقاته بالجانب العقدي القسم الأخير د. عبد المنعم فؤاد.

حارثة^(١). أي تبناه ، وكان هذا التبني مألوفاً في عهده عليه الصلاة والسلام. ولم يقع فيه حكم شرعي. لكن الله عز وجل أراد أن يبطل هذه القضية المألوفة فقال لنبيه ﷺ: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٢). أي ما فعلته يا محمد من مكافأة لزيد بسبب إخلاصه هو عدل بلا شك لكن عندي في حكمي ما هو أعدل منه فتقبله ، وجاء التعبير في ذلك بأقسط أي أعدل ، والنبي ﷺ لا يستنكف أن يعدل له حكم^(٣) ، وهذا دليل على أن ما فعله النبي صواباً وعدلاً لا جوراً. هذه واحدة.

أما الثانية : فإن النبي ﷺ قد زاد في كرمه فزوجه ابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها ، ثم أوحى المولى عز وجل إليه أنها ستكون من أزواجه عليه الصلاة والسلام فيما بعد وسيطلقها زيد ولم يظهر النبي ذلك لأحد ، وفجأة جاءه زيد رضي الله عنه ليشكوها إليه فقال له النبي ﷺ «اتق الله وأمسك عليك زوجك» فقال له المولى قد أخبرتك إنها ستكون لك زوجة وسيطلقها زيد وتحفي في نفسك ما الله مبديه ، هذا هو ما ذكره السدي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾^(٤).

والمقصود هنا زيد الذي أنعم الله عليه بالإسلام وأنعم النبي ﷺ عليه بالتبني والزواج من زينب ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾^(٥). أي فلما

(١) انظر: رداً على الملاحدة والعلمانيين، ص ٧٠، ٧١ الشيخ الشعراوي.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٢.

(٤) سورة الأحزاب، من الآية: ٣٧.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٣٧.

قضى زيد منها حاجته وفارقها وانتهت عدتها زوجها الله لنبيه ﷺ لثلا يبقى على المؤمنين حرج في تزويج مطلقات الأعداء^(١).

وعلى ذلك فالقضية ليست شهوة أو غريزة محرمة بل قضية شرع إلهي وتنفيذ للشرع الحكيم وتنظيم للحياة الإنسانية عن طريق هذا الشرع الحكيم، ولكي ينطلق هذا التنظيم ويتحرك في طريقه السليم ويتقبله الناس بقبول حسن لا بد أن تكون نقطة انطلاقه الصحيحة من بيت النبوة، وتطبيقه العملي يكون عند النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام، وقد تم ذلك على أكمل وجه وأحسن تطبيق، وتبين أن زيدا ليس هو كما ادعى المستشرقون أنه من صلب رسول الله بل بالتبني والتبني انتهى وقته بتطبيق زينب من زيد وتزويجها للرسول ﷺ ولم تعد هناك حرمة شرعية لزوجة الابن الدعي إذا طلقت منه وصار هذا تشريعاً عاماً بعد ذلك.

وما أحوج العالم إلى هذا التشريع الآن إذ نرى الملاجئ والمدارس في الغرب الأوروبي على مرأى ومسمع من المستشرقين تعطي الأولاد لعائلات عن طريق التبني ويبقى الولد في الأسرة له حق في الميراث وله حق في المسكن وله حق في اللبس بل وينام بجوار زوجة الأب المدعي على اعتبار أنها أمه وهي في الحق ليست أمه وينام بجوار ابنتها على اعتبار أنها أخته، وهي ليست أخته وتختلط بذلك الأوراق والأنساب ويصبح الباطل حقاً والحق باطلاً، والسبب هو الإعراض عن هذا التشريع الإسلامي العظيم الذي طبقه الرسول ﷺ على نفسه وفي بيته وعلى مرأى ومسمع من الجميع، وغني عن البيان أن المنافقين قديماً دسوا على الرسول ﷺ وأشاعوا أقاويل نحوه بسبب هذه القضية، وقالوا: إن الرسول ما فعل ذلك إلا لخبه لزینب، واليوم يردد أحفادهم من المستشرقين نفس ما رده أجدادهم.

(١) تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ٤٩٢، ٤٩٣.

ولقد استغرب علماءنا قديماً هذا القول - كما نستغربه من المستشرقين الآن - ودفعوه وأبطلوه ، ومن هؤلاء العلماء القاضي أبو بكر بن العربي الذي قال : أما قولهم إن النبي ﷺ قد رأى زينب فوقعت في قلبه فباطل ؛ لأنه كان معها في كل وقت وموضع ولم يكن حينئذ حجاب . فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها في كل ساعة ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج ، وقد وهبت نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله ، فكيف يتجدد هوى لم يكن ؟ حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة^(١) .

وصدق القاضي ابن العربي في ذلك ، فالنبي العربي ﷺ كان أكبر وأعقل مما يتصوره المنافقون والمستشرقون ؛ لأنه كان منفذاً لأوامر الله بكل حق وفي كل وقت ، والله هو الذي كان يؤدبه ويأمره ويقول له : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۗ ﴾^(٢) .

ومعلوم أن النساء أفتن الزهرات وأنشر الرياحين ، ولم يخالف النبي هذا في المطلقات فكيف في المنكوحات المحبوسات ؛ لذلك حكم المنصفون من المستشرقين بإنصاف النبي ﷺ ورفض ما زعمه الحاقدون من زملائهم ضد الرسول الكريم ، ومن هؤلاء المنصفين (توماس كارليل) الذي نكتفي بقوله الذي جاء فيه : «وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلماً وعدواناً ، ونخطئ إن حسبناه رجلاً شهوانياً لا هم له إلا قضاء مآربه من الملاذ . كلا فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أياً كانت»^(٣) .

وفي النهاية أقول لعل المستشرقين بعد هذه الشهادة من زميلهم (توماس كارليل) وغيرها كثير لعلهم يراجعون أنفسهم تجاه هذا النبي الكريم ويضعوا الأمور في نصابها

(١) نقلاً عن كتاب مع المفسرين والمستشرقين لزهرا الألمي ، ص ٨٣ .

(٢) سورة طه ، الآية : ١٣١ .

(٣) نقلاً عن المصدر السابق ، ص ٨٥ .

فلا ينسبون للنبي ما ليس فيه ، ولا تريد منهم أن يزيدوا عما هو فيه ، فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا - في اعتقادي - فليوجهوا على الأقل وجوههم شطر شخصيات أخرى مشهورة وعلى الملأ صورها منشورة ، وخزائنها ملأى بالفضائح والدسائس التي قد تشبع غرائز الشهوانيين من المستشرقين ، وليذهبوا بعيداً عن اتهام أطهر وأنبل وأعقل وأعدل شخصية عرفتها البشرية في أطوارها المتعددة تجسد فيها الطهر والعفاف والكرم والخلق الجميل فكان ﷺ :

رحمة كله وحزم وعزم ووقار وعصمة وحياء

صلى عليه الله وعلى آله أجمعين.